يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب

قرآن كريم

النفاق والمنافقون

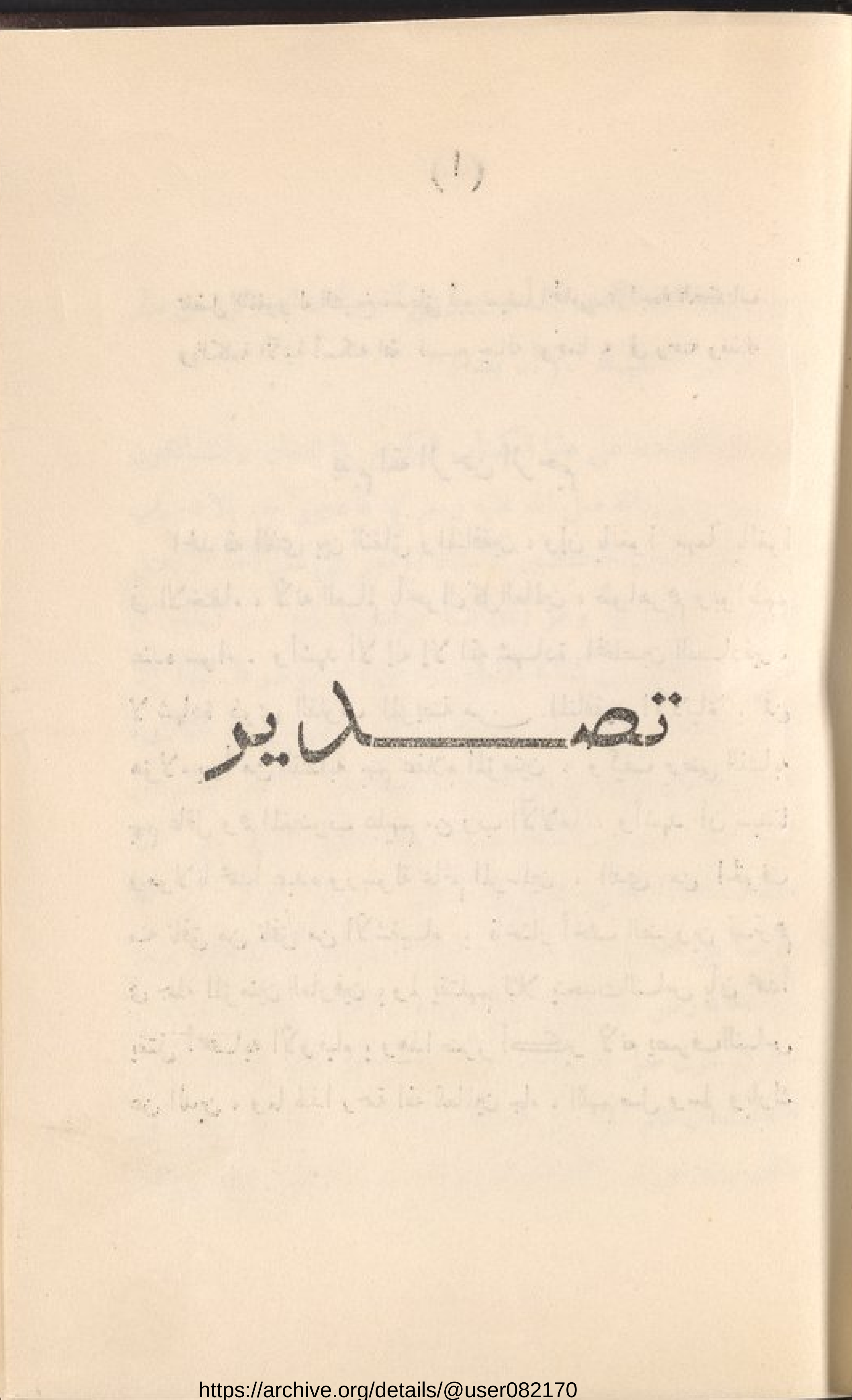
في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابراهيم علي سالم

ليسانسيه في القوانين من الجامعة المصرية

مأمور مركز قوص

مطبعة حسني ت ٤١٢٣٣



تصدير

تفضل المغفور له الشيخ مصطفى أبو سيف الحمامى بمراجعة الكتاب وبالكلمة الآتية أسكنه الله فسيح جناته وجمعنا به فى رحمته وفضله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بين النفاق والمنافقين ، وإن بالغوا مهما بالغوا فى الاختفاء ، لأنه العالم بأحوال كل العالمين ، ظواهرهم وبواطنهم عنده سواء . وأشهد ألا إله إلا الله شهادة المخلصين الصادقين ، لا شهادة ذوى القلوب المريضة من المنافقين الأدنياء ؛ فمن هؤلاء يبرأ من التشابه بهم عقلاء المؤمنين ، وكيف يرضى التشابه بهم عاقل وهم المغضوب عليهم من رب الآلاء . وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله خاتم المرسلين ، الذى من الخوف منه نافق من نافق من الأشقياء ؛ فاختار أخف الضررين تسترهم فى جملة المؤمنين العارفين ؛ ولم يقتلهم لئلا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه الأوفياء ؛ وهذا ضرر أكبر لأنه يصرف الناس عن الدين ، وما لهذا رحمة الله للعالمين جاء ، اللهم صل وسلم وبارك

على سيدنا محمد الأمين المأمون وعلى آله وأصحابه وكل من سار سيرهم من الأتقياء . (أما بعد) :

فقد اطلعت على هذا الكتاب الكريم ﴿ النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾ فأعجبنى جد الاعجاب لأنه بقلم الأديب الكبير الأستاذ ابراهيم على سالم أحد الأفاضل النجباء ، كيف لا وهو أبان لنا موضوعاً بينه رب العالمين فى مواضع كثيرة من كتابه الامام ، ومن يبين موضوعا كهذا إلا العليم بالظواهر والبواطن سبحانه وتعالى — فليتمتع به القارىء الصافى الايمان وليفرح به وليدع لصاحبه بطول الأجل والتوفيق لكل خير ، خصوصاً أمثال هذا البحث الجميل الذي يبين لنا مقصد ذلك الكاتب النبيل بالكتاب . واقرأ قوله زاده الله حرصاً على التشبه بسيد الوجود آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم : (فما أردت بالكتاب إلا أن أصاحب عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأتمثل الحوادث تتجسد أمامى فأحاول أن أشم شيئاً من نفحات ذلك العصر ، وأن أدخل أنفى وقلبي وروحى فى ذلك التراث الوثير من الأخبار لعل بصيصاً

من نور النبوة يحيي من النفس مواتها ويرفعها من أرجاسها ويغسل ما قد يكون عالقاً بها من النفاق والرياء) تفهم ما أشير اليه .
وشكرى للمؤلف لا يحد لما بذله من الجهد المضنى فى هذا الموضوع والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ؟

مصطفى أبو سيف الحمامى ٩ شوال سنة ١٣٦٧
(طبق الأصل) خطيب الحرم الزينبي ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٨

شاء حسن ظن أخينا فى الله الأستاذ السيد عرفه المدرس بالمدارس الثانوية أن يقدم لنا الكتاب بهذه الكلمة فلم نر بدأ من نشرها شاكرين له حسن ظنه وإن كنا موقنين أنه فاق ما نتأهله :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسوله السيد السند الكريم

لقد كان أول أمر أنزله الله على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم من السماء قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ۞ خلق الانسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ۞ الذى علم بالقلم ۞ علم الانسان مالم يعلم) وأنا أنسج على هذا المنوال فأطلب من كل مثقف أن يقرأ هذا الكتاب مستحضراً ذهنه ، مناقشاً فكره فى موضوعه الطريف ، وحسن تناوله الظريف . ولست أقصد بطرافته الابتداع لما لم يكن موجود الدين ، ولا التصدى لتحليل لم يسبق اليه ، ولكنى ذهبت الى ناحية الجمع والتمحيص ، وعرض صورة حية من صور الانسانية المترعه بمظاهرها الخيرية والشريرة ، واذا كان المؤلف قد اختار الأخيرة فذلك لأنه سار فى طرق الاولى مطبوعاً غير

متطبع فأراه الله حدوده وبين لروحه نور اليقين وظلمة المعاصى ؛
فرأى لزاما عليه حتى يكون شاكراً لربه أن يقف على تلك الحدود
ليزج عنها من يوشك أن يتورط فيها شأن القائد المحنك الواثق
بنفسه تراه يتنحى ناحية الخوف ليذود عن جماعته أسباب المهالك
ويجنبهم سوء المنقلب . وانه لا خسران يعادل خسران رحمة الله
يوم العرض عليه فى موقف لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يقبل
من نفس شفاعه ، ولا يؤخذ منها عدل . فعليك أيها الحصيف قراءة
هذا الكتاب وترديد قراءته لتعلم مقدار هذا البحث القيم فى
التعريف بخاق انسانى ذميم ألبسته له الحياة الاجتماعية ، وقوته
الاطماع الشخصية حتى أكل القلوب وطمس معالم الانسانية ، وأقام
الدنيا وأقعدها فى جميع أطوار التاريخ ، ثم بلغ أشده وتجلى فى
عنفوان زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا غرو فان
لكمال التام لا يظهر إلا اذا قرن بالنقص التام . وكل ذلك ستجده
مفصلا فى كتاب ابراهيم « النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم » أيها القارىء فتملىء نفسك روعه . وحينئذ
تعرف شرف الموضوع وتقر لكاتبه بحمد المجهود وتود لو أنه

أتبعه بمثله فى العصور الأخرى ليبتعد الخلق عن مثل هذه السفاسف وليعيشوا إخوانا متناصرين حاسبين ليوم معادهم كل حساب .

قال الأمام يا ابراهيم ولا تلهينك شئون الوظيفة فتحرم العلم من قلبك وفكرك وبحثك أكثر الله من أمثالك ، وأنالك ما تصبو اليه من اتصال بحبل الله المتين ، وشرفك بشفاعة سيد المرسلين ، وأطال عمرك مع مدد بروح من عنده ليسلكك فى سلك العاملين المأجورين ؟

السيد عرفه

(طبق الأصل)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحى القيوم العلى العظيم ، والصلاة والسلام على الرسول الكريم ، الشاهد المبشر النذير ، السراج المنير ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فقد قال ابن المقفع فى الادب الصغير إن : « سليقة العقل مكنونة فى مغرزها من القلب ، لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الادب الذى هو نماؤها وحياتها ولقاحها . وجل الادب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعلم ، ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مروى متعلم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ولم يأتهم علمها إلا من قبل العليم الحكيم .

فاذا خرج الناس عن أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا

قولا بديعاً ، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وان أحسن وأبلغ ليس زائداً على ان يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجانا فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل فص موضعه ، وجمع الى كل لون شبهه ، مما يزيده بذلك حسنا فسمى بذلك صائغاً رفيقاً وكصاغة الذهب، والفضة صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحلى والآنية ، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلا جعلها الله ذللا ، فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً اليها مذكوراً به أمرها وصنعتها .

فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجبن به إعجاب المخترع المبتدع ، فانه إنما اجتباه كما وصفناه ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به فى موضعه على وجهه فلا يرين عليه فى ذلك ضؤولة فانه من أعين على حفظ قول المصيبين ، وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه ألا يزداد فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولا

بغائضه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه .

وانما أرجو من ايراد هذا الحديث عن ابن المقفع ألا يتوقع قارىء أن يجد فى هذا الكتاب بحوثاً فنية مؤسسة على ما اصطلح عليه أهل الفن فى التأليف الحديث من التقسيمات والدرس والبحث والتحليل . وقد يكون أكثر الجهد فى جمع أخبار المنافقين المبعثرة فى مطولات كتب السيرة النبوية والتاريخ والتفسير والحديث ، وجمع كل خبر الى مناسبته وصاحبه . وقد اقتضى هذا الجمع جهداً مضنياً وزمناً طويلا بلغ بضعاً من السنين نظراً لضيق وقت الفراغ . وحتى لقد حرصت كثيراً أن أورد الخبر بلفظه ، كما ورد فى كتب السير ، ولو كان اللفظ غريباً .

وانى لأعلم أن الكتاب على وضعه الحالى ينقصه كثير من التحقيق ، فعالم الحديث يرى فيه أحاديث قد تكون موضعاً للتحقيق من جهة نوع الحديث وصحته ، ورجال السند . وعالم التاريخ يرى فى بعض أخباره مايحتاج للتحقيق ، وخاصة فيما قد

أختاره من الروايات المتناقضة . وعالم الفقه يرى فى بعض أبحاثه أنها مقتضبة غير شافية . فإلى هؤلاء أحنى رأسى ملتمساً المعذرة . فما أردت بالكتاب إلا أن أصاحب عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأتمثل الحوادث تتجسد أمامى ، فأحاول أن أشم شيئاً من نفحات ذلك العصر ، وأن أدخل أنفى وقلبى وروحى فى ذلك التراث الوثير من الاخبار ، لعل بصيصاً من نور النبوة يحيي من النفس مواتها ويرفعها من أرجاسها ، ويغسل ما قد يكون عالقا بها من النفاق والرياء . ولقد يهذى العاشق بمحبوبته فيتنسم من حيها ومنزلها وصورتها ومأكلها ومشربها وملهاها ما تلتهب به نفسه فيتمتع بما قد يستعر فى قلبه من لظى الحب . ولقد ينفق الناس أموالا طائلة فى المسارح والملاهى والسينمات وقراءة الروايات ليخلقوا حولهم جواً من الشعور بما يجدونه فيها من الخيالات والاقاصيص . أفلا تكون لى من ذلك مندوحة فأحاول أن أتمثل عصر النبوة وأتنسم شيئاً من جوه ، وأن أستصحب معى من شاء من القراء .

ولقد كنت منذ حداثة سني أقرأ القرآن فيروعني وأنا طفل صغير أن أسمع لفظ المنافقين فأستشعر صراعا عنيفاً لا أدرى مداه بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافقين ، وكان الزمن كلما مضى بي الى الفتوة يدفعني أن أستزيد علما بهذا الصراع ، وأن أستطلع ما أستطيع استطلاعه من أمره حتى كانت أمسية جميلة بمسجد الحرم الزينبي بعد صلاة المغرب إذ هممت بالخروج فسمعت شيخ المسجد الوقور — محمود البيلاوى رحمه الله — يحدث الناس بحديث المنافق بشر الذى رفض الاحتكام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب الاحتكام الى كعب بن الاشرف اليهودى ، فأفاض الشيخ وقص القصة رائعة رنانة ، ثم نشر الايات التي نزلت في هذا الشأن ، وشرح أوصاف المنافقين وأحوالهم ، كما وردت في أول القرآن من سورة البقرة . فما أن انتهى الشيخ من حديثه حتى هفت نفسي الى الاستزادة من هـــذا التاريخ العجيب الذى نرى الان أمثاله فاشياً بين الأحيا .

وما كنت لأفكر أول الأمر أن يكون هذا بحثاً ولا كتاباً ، وإنما كنت أدون مما أقرؤه مذكرات أحتفظ بها لنفسي وخاصة في أخبار المنافقين ، إذ كنت أفرد لها مجموعة مستقلة ، حتى اطلع عليها عزيز على نفسي فدعاني أن أجمعها فأخرجها كتاباً ، وما كان تأليف الكتب من شأني بعد أن انتحيت في عمل يأكل الزمن التهاماً ويقضي على صاحبه أن يستغرق فيه . ولكن صاحبي أبى إلا التشجيع بالمعاودة والإلحاح ، فأقمت على الأمر أعالجه ويستعصى علي وأتركه تحت ضغط مشاكل الحياة وآلامها ، ثم يتراءى لي كالحلم الجميل فأنزع اليه حتى يسر الله بفضله على النحو الذى أتقدم به الى القراء .

ولم يصل الى علمي أن جمعت أخبار المنافقين من قبل في كتاب واحد ، فليكن شفيعي الى الناقد البصير جهدي . ولعل ذلك يفتح للقلوب الكبيرة أبواباً لتكملة البحث ، ولعلي اذ

وصلنى الزمن وأتاح الله لى الفرصة أن أستكمل ما قد ينكشف من النقص . ويكفينى الآن أن أنفض غبار الزمن عن أفانين النفاق فى ذلك العهد ، وكلى رجاء وأمل أن ينفض غيرى غبار الزمن عن أفانين النفاق التى جاءت بعد ذلك العهد ، فأحدثت كثيراً من الفتن وخلقت كثيراً من المشاكل والفرق .

وبالله التوفيق ؟

ابراهيم على سالم

سمنود ٢٤ رجب سنة ١٣٦٧
٢ يونيه سنة ١٩٤٨

محتويات الكتاب

مقدمة عامة

١ - ١٨

تعريف النفاق — الكذب عنصر أساسى من عناصر الحياة — علاقة الكذب بالعدم وبالانسان — أسباب الكذب — الحكم على الكذب — الكذب والغريزة — خواص النفاق — العالم بدون نفاق — النفاق فى الأمور الخطيرة — النفاق فى الحروب — الجاسوسية — النفاق فى السياسة والحكم — تداخل النفاق فى كثير من الجرائم الخلقية — النفاق والكذب ألفاظ مكروهة مرذولة — ما كيافلى والنفاق — بعض تعاليم ما كيافلى — قيمة تعاليم ما كيافلى — النفاق سابق لما كيافلى — النفاق فى صدر الاسلام — دره النفاق والمدينة الفاضلة .

مقدمة تاريخية

١٨ — ٣١

تاريخ العرب وتاريخ المدينة — لم يكن العرب دولة واحدة والسبب فى ذلك — دولة اليمن — دولة المناذرة والغساسنة وسنده وتبعيتها لغيرها — النظام القبلى فى بلاد العرب — النظام القبلى لا يعرف الملكية .

تاريخ المدينة قبل الاسلام — قبائل المدينة — الخلاف بين الأوس والخزرج — حروب الأوس والخزرج وظهور زعامة عبد الله بن أبى سلول — يوم بعاث — الميل الى الوئام ونبذ الحرب والعزم على تتويج عبد الله بن أبى ملكا على المدينة .

الباب الاول

نشوء النفاق وحوادث المنافقين

بدء النفاق

٣٢ – ٤٦

تضاؤل النعرة القبلية بالمدينة - جامعة الأوس والخزرج تحت اسم الأنصار - الظواهر الجديدة بالمدينة وتضامن الأنصار - المعاهدة - شئون الذين لم يؤمنوا - أبو عامر الفاسق - عبد الله ابن أبي زعيم المنافقين - اشتغال ابن أبي بالبغاء - ابن أبي قبل تظاهره بالاسلام - ابن أبي أثناء دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ثم عند مروره بأطمه - ابن أبي وابنه عبد الله - اجتذاب ابن أبي للأعراب - محاولته إشعال الفتنة بين الأنصار .

أثر موقعة بدر وإسلام ابن أبى

٤٧ — ٥٠

قوة المشركين فى موقعة بدر - نتيجة الموقعة بالنسبة لليهود والمنافقين - الارجاف الكاذب قبل عودة الجيش - تظاهر ابن أبى بالاسلام .

فى موقعة بنى قينقاع

٥١ — ٥٧

خروج بنى قينقاع على العهد وسبب ذلك - تبرىء عبادة ابن الصامت منهم وموالاة ابن أبى لهم - تحدى اليهود - شفاعة ابن أبى لليهود

ابن أبى بعد اجلاء بنى قينقاع

٥٧ — ٥٩

أعمال متفرقة ..

فى موقعة أحد

٦٠ — ٧٩

ابتلاء المؤمنين واختبارهم - ظهور المنافقين الجماعى فى أحد -

عدد المشركين فى أحد - استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه - ابن أبي فى الاستشارة - الرأى بالحرب داخل المدينة وخارجها، ثم تغلب الرأى الثانى - خروج ابن أبي ومعه اليهود ورفض التحاقهم بالجيش - غرض ابن أبي - محاولات ابن أبي - سبب استحضار اليهود - ضعف المنافقين - غرض ابن أبي فى إدخال الفشل على العسكر - استمرار بعض المنافقين فى الجيش - الارجاف والشماتة بعد الواقعة - شماتة المنافقين - سياسة النبي صلى الله عليه وسلم فى عدم قتل المنافقين - ابن أبي وابنه عبد الله بعد أن أصيب - ابن أبي يحاول استعادة مركزه يوم الجمعة.

فى غزوة بنى النضير

٨٠ — ٨٨

دور المنافقين - سبب الغزوة - ما فعله ابن أبي - اغترار اليهود بإرشاد المنافقين - اخلاف المنافقين وعودهم - سبب وعود ابن أبي - حزن المنافقين على بنى النضير .

في غزوة الخندق

٨٩ — ٩٥

تخاذل المنافقين . سبب الغزوة . المنافقون بصدد بعض المعجزات . نقض يهود بنى قريظة العهد . سخرية المنافقين . اشتداد الخوف والبلاء . عدم ظهور ابن أبي في هذه الحوادث .

في غزوة بنى المصطلق

٩٦ — ١٢٢

دوران هامان للمنافقين . سبب خروج المنافقين فى الغزوة .

الدور الأول محاولة توسيع الخلاف بين المهاجرين والأنصار لسبب تافه . زيد بن أرقم يروى أقوال ابن أبي . اعتذار ابن أبي وحلفه . فشو الحديث . عبد الله بن عبد الله بن أبي يعرض قتل أبيه . الأمر بالرحيل في ساعة منكرة . السير الحثيث نزول سورة المنافقين . معاتبة قوم ابن أبي له وتعنيفه . عبد الله ابن عبد الله بن أبي يعترض أباه .

الدور الثانى حديث الافك . سبب الحديث . ابن أبي يتولى الحديث عقب الدور الأول . قصة الافك على لسان السيدة

عائشة رضى الله عنها . الفترة بين حديث الافك وآيات البراءة . الاستشارة . الاستعذار . غرض ابن أبى من الحديث وذكر من انزلق اليه .

بعد غزوة بنى المصطلق الى تبوك

١٢٣ — ١٢٨

في صلح الحديبية . المشركون من قريش يدعون ابن أبى للطواف . الشكوى من قلة الماء وما تم فى ذلك . الجد بن قيس فى الحديبية .

فى غزوة خيبر . عدم تأثرهم بفتوح المسلمين .

فى غزوة تبوك

١٢٩ — ١٧٣

مميزات الغزوة وسورة براءة . الأمر بالغزوة . التثاقل الأول البكاءون . تصيد الأعذار . التخلف وبعض أعذاره . عزل المنافقين . تأليف فرقة لتثبيط الهمم . عدم الخزى من الدعاية . ابن أبى ويأسه من الدعاية . المتخلفون . خلو المدينة من الرجال الأشداء عدول أبى خيثمة عن التخلف . الجاسوسية فى الجيش .

الشدة فى طلب الماء . المنافقون يتحدثون عن ضياع ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تأولوه فى العودة من تبوك . حادث العقبة . ارجاف المنافقين ثم اعتذارهم . قصة التوبة وأهميتها .

مسجد الضرار

١٧٤ — ١٨٠

فكرة انشاء المسجد. أسماء بناته . المسجد عش للتآمر واحداث الفتن . هدم المسجد .

وفاة ابن أبى

١٨١ — ١٨٦

احتضاره وطلبه قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم . الصلاة عليه . تفسير للغرض من اعطائه القميص والشروع فى الصلاة عليه .

الباب الثانى

تعريف النفاق وعناصره وأهميته

۱۸۷ — ۲۲٦

النفاق لغة . معنى النفاق وتحديد الفخر الرازى لذلك بتقسيم أحوال القلب واللسان . أقسام الناس حسب العقيدة . أهمية شأن المنافقين وتفصيله فى القرآن . الفرق بين الكافر والمنافق . اختلاط المنافقين بالمسلمين . تميز المنافقين . حديث خصال المنافقين واختلاف الآراء فى ذلك . نتيجة الآراء . المراد بالحديث . خطر الكذب والخيانة والاخلال بالوعد على العقيدة قصة ثعلبة بن حاطب . الارتباط بين الظاهر والباطن وأهمية أحوال القلب . أنواع القلوب . مرض القلب وعلامة ذلك بالنفاق انتشار الكذب . معرفة كثير من المنافقين . المنافقون لم يكونوا على درجة واحدة فى النفاق .

الباب الثالث

معاملة المنافقين

٢٢٧ — ٢٥٦

أهمية البحث . الجاسوسية في الحرب والسلم ومقاومتها في العصر الحاضر . علاج النفاق . أقسام الناس حسب ظاهر العقيدة القاعدة الاساسية في معاملة المنافقين . النهي عن الحكم بالظن . السبب في عدم قتل المنافقين وآراء الأئمة في ذلك . معنى الزندقة . تشعب الفرق والزندقة . أشكال النفاق بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ملخص آراء الأئمة . عدم التغافل عن شأن المنافقين وجهادهم .

النهي عن موالاة المنافقين اشتراك اليهود في النفاق . منافقون يتآمرون بالمسجد ، ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإخراجهم . سبب النهي

الباب الرابع

أحوال المنافقين وصفاتهم

٢٥٧ — ٢٩٧

النفاق جامع لجميع الآفات والخصال الذميمة . عامل الحيرة.
يشترك فى جميع أحوال المنافقين وصفاتهم . مثلان عن الحيرة من
القرآن . تجسد المثلين فى جميع أحوال المنافقين ثم فى الدار الآخرة.

« ١ » حالة التربص

« ٢ » حالة الخوف

« ٣ » المنافقون فى الصلاة

« ٤ » المنافقون فى الصدقات والانفاق فى سبيل الله.
النفقة فى الحروب . نقد باذل الصدقة . نقد توزيع.
الصدقات

« ٥ » حالة المنافقين فى الصدقات بين على بن أبى طالب.
رضى الله عنه وأحد المنافقين
قصة بشر المنافق مع اليهودى
قصة بشر بن أبيرق

« ٦ » المنافقون فى القتال التخلف والاستئذان

الباب الخامس

أعمال المنافقين وأسلحتهم

٢٩٨—٣١٦

«١» اليمين الكاذبة

«٢» الخداع — التبييت — استغفار المنافقين

«٣» إثارة الخلاف بين المسلمين

«٤» التنفير من المؤمنين — زعم التناقض — السخرية

«٥» الدعاية السيئة

«٦» شماتة المنافقين

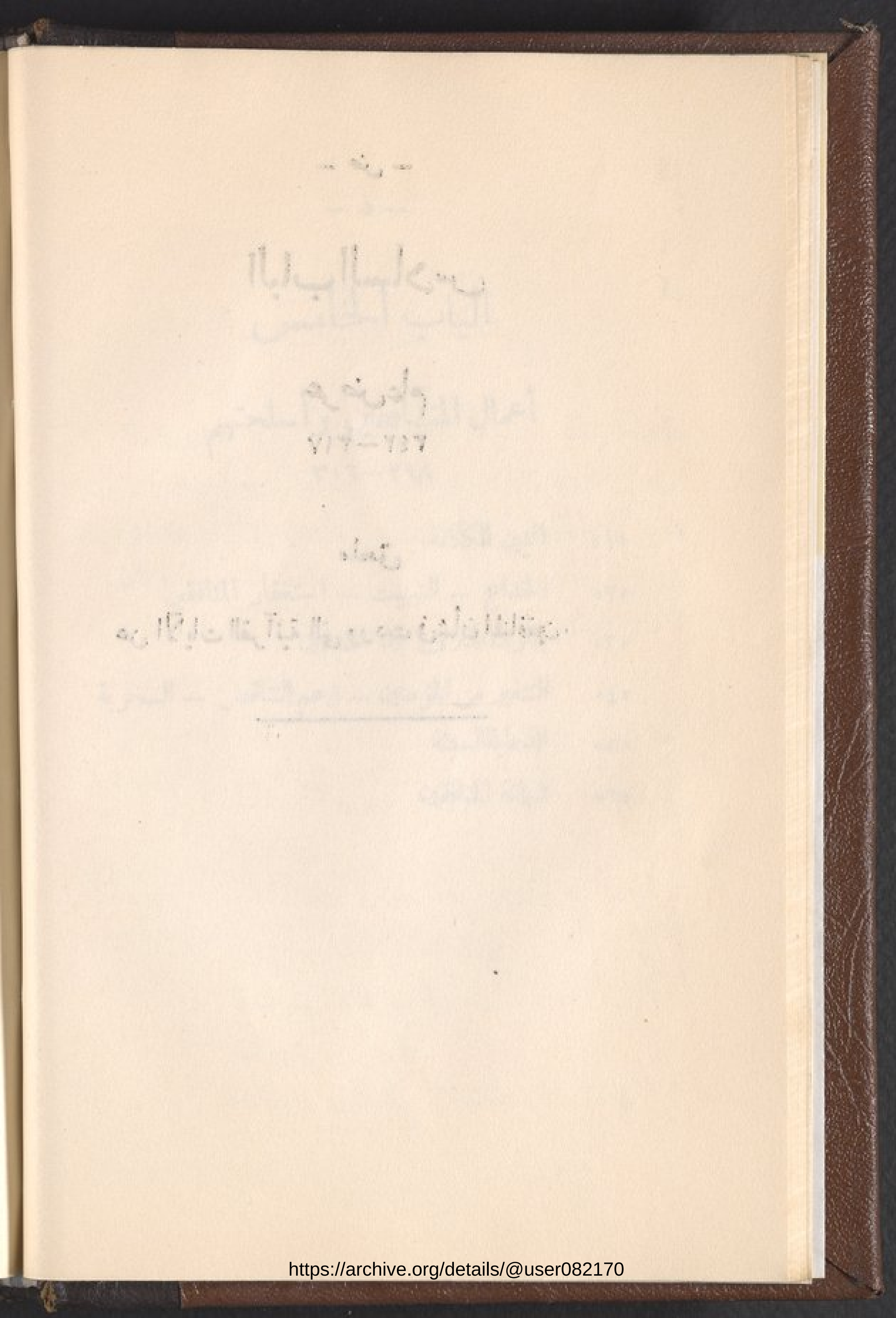
الباب السادس

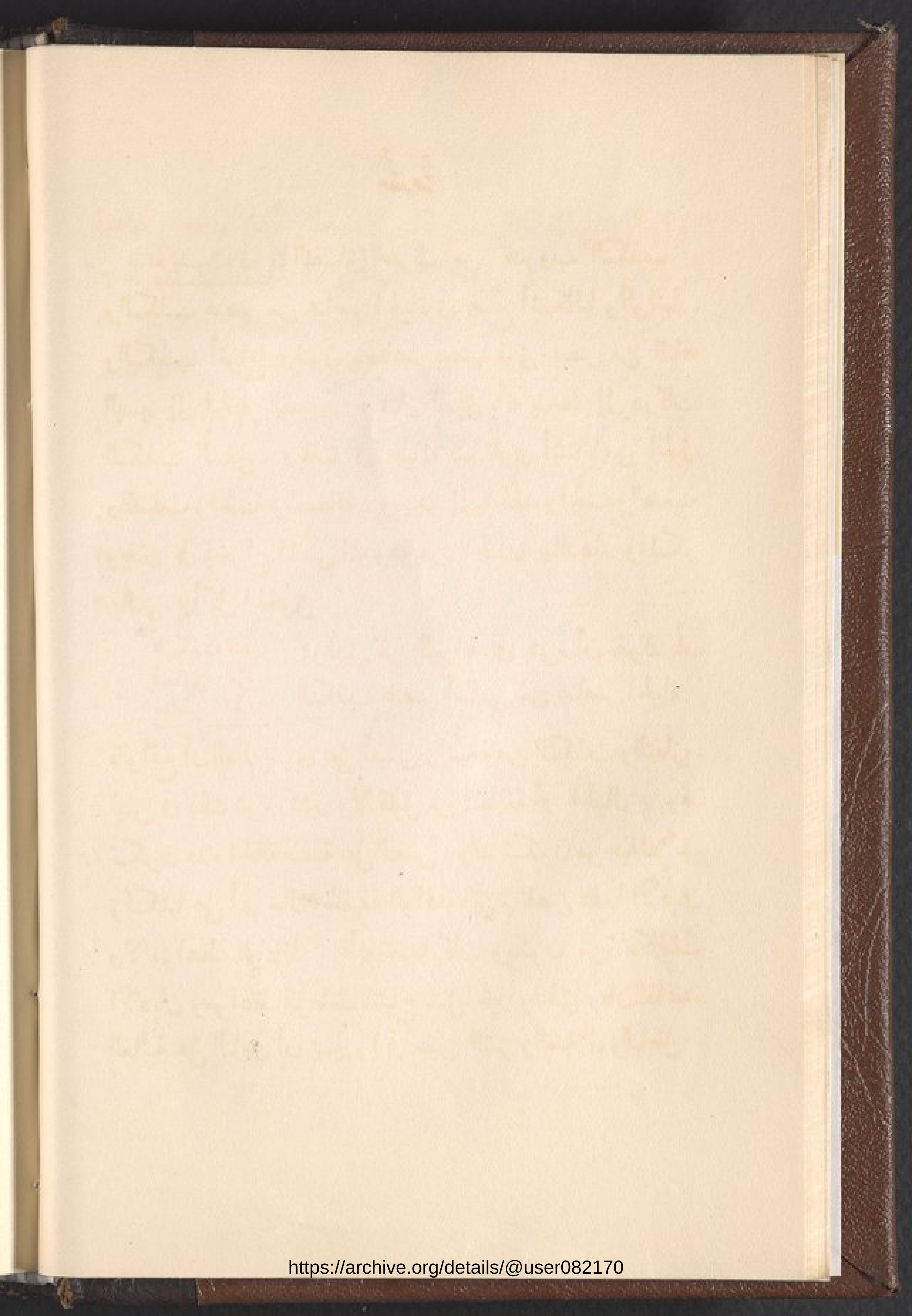
عرض عام

٣١٧ — ٣٤٢

ملحق

عن الآيات القرآنية التى وردت فى شأن المنافقين .





مقدمة

تعريف النفاق : النفـاق ضرب من ضروب الـكذب ، والـكذب عنصر من عناصر الحياة فى جميع أشكالها وألوانها . والـكذب أنواع وفنون يتصاعد بعضها فوق بعض من التافه اليسير إلى الخطر العسير . ويمتاز النفاق بأنه ينحط إلى دركات الـكذب السفلى ، ويلف فى طياته كلما تلوى أشتاتا من الجبن والصلف والخسة والصفاقة ، ويدعو إلى الحقد والحسد والضغينة ويفتن فى إخراج المآسى المروعة من الخبث والدهاء والمكر السيء وأكل الحقوق .

الـكذب عنصر أساسى من عناصر الحياة : وليس من الغرابة فى شيء أن نقول بأن الـكذب عنصر أساسى من عناصر الحياة :

فالواقع أن العالم يجرى على أسس راسخة من الـكذب والنفاق ، ليس فى ذلك شيء كثير ولا قليل من المبالغة أو الخيال . وقد تـكون هذه الحالة صعبة على النفس ، وقد تـكون موجبة للأسى ولـكنها على أى حال الحقيقة الواقعة التى لم تقض عليها الأديان ولا مواعظ الوعاظ ، فأنه مهما كان ويكون من تكاليف الأديان ومواعظ الوعاظ بانتهاج سبل الخير والحق ، فان القاعدة الغالبة على الناس أن يسيروا فى سبل الشر والضلال والباطل .

وقد أوضح الله تعالى سبل الخير فى منطق أخاذ وحجج دامغة ومرغبات حافزة ومع ذلك أراد ولاراد لقضائه أن تسير الكثرة من بنى آدم فى مناهج الضلال وأخبر بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم فى كتابه العزيز فقال: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (يوسف ١٠٣) وتمت حكمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» (هود ١١٩)

علاقة الكذب بالعدم وبالانسان

: والإنسان مخلوق من العدم، يرفعه الدين والايمان بالله إلى الحق المضىء، وتجذبه شكول العدم إلى وهاد الباطل المظلم، والباطل من العدم ومظهره الكذب. ولنا أن نتدبر قول الحق الأعلى «إن الانسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» فإن هذه الآية الكريمة تدل فيما تدل أن الأصل فى الانسان أن ينزلق إلى الخسران عن طريق شهواته وغرائزه فهو يتردى من هذا الأصل فى مهاوى الباطل المظلم ولا يستطيع أن ينجو من ذلك الظلام إلا أن يهتدى بنور الايمان والعمل الصالح وأن يتشح بأردية الصبر على خشونتها وأشواكها ليصل الى نور الحق. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ وصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر وجعل الكذب من الفجور وجعله باباً من أبواب النفاق

أسباب الكذب: ماهى الأسباب التى تدعو الانسان إلى الكذب؟ الواقع أنها عديدة لا يحيط بها حصر. وأكتفى بأن أبين بعضها على سبيل الأجمال: فالكذب إما أن يكون سعيا وراء نتيجة أو يكون إشباعا لشهوة الخيال. والنتيجة فى النوع الأول إما أن تكون فائدة تعود على الكاذب سواء أنتج منها ضرر للغير أم لم ينتج واما أن تكون قاصرة على ايذاء الغير دون فائدة تعود على الكاذب. وقد تكون الفائدة مستحقة أو غير مستحقة: أما غير المستحقة فالكذب للوصول إليها أمره واضح، وأما المستحقة فقد يستعصى الحصول على الحق من الغاصب الخبيث الذى يحكم تلبيس الحق بالباطل فيضطر صاحبه أن يدرأ الشر بالشر والكذب بالكذب. وأما النتيجة التى لا تحتوى الاضرار بالغير دون فائدة تعود على الكاذب فإنما يصدر ذلك عن نفوس شريرة خبيثة يصير الكذب من شهواتها الجامحة التى لا تستطيع أن تكبح جماحها.

الحكم على الكذب: ومدار الحكم على هذه الوجوه جميعها هو ايذاء الغير وجودا وعدما، ومقدار ذلك الأذى إن وجد، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده» وإذن فالحكم على الكذب يدور مع نتيجته وفق شدتها،

ولذلك لم يكن الكذب حراما لذاته بل لما فيه من الضرر فإن أقل درجاته ادخال الجهل على الغير ، ولذلك ذهب الفقهاء إلى أن بعض الكذب جائز وبعضه واجب . وقد وضع لذلك الامام الغزالى قاعدة فقهية وهى أن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام ؛ وأن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح أن كان تحصيل ذلك القصد مباحا فإن كان المقصود واجبا كان واجبا ، مثال ذلك أن الكذب واجب ان كان فيه عصمة دم امرىء مسلم اختفى من ظالم وكان فى الصدق سفك دم المسلم ظلما الا أنه ينبغى أن يحترز من الكذب ما أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى الى ما يستغنى عنه ، والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون حراما فى الأصل الا لضرورة .

الكذب والغريزة : والكذب يكاد يكون عادة تتمشى مع الغرائز وتتغلغل فى أعماق النفس ، وبذلك ينصرف الى جميع وجوه الحياة ، ويتشكل طوعا للشهوات فيرضيها ويزينها ويلهبها ، ويخفيها ويتستر عليها ، وقد يضفى عليها مسوحا مزورة للفضيلة ، وعلاج النفس من جميع أنواع الكذب صغيرها وكبيرها أمر

عسير يحتاج الى جهاد طويل ورياضة شاقة .

خواص النفاق : أما النفاق فهو وإن كان من أنواع الكذب ، الا أنه يتضمن حتما ايذاء الغير ويهدف اليه . وأمره لا يقتصر على مجاراة الغرائز واشباع الشهوات ، وانما يقتضى فنونا من الصناعة وضروبا من التشكيل والتهيئة والمظاهر ، ولا يصير عادة الا بمرور الزمن عندما تتأصل له فى النفس عقدة يرتكز عليها ويصدر منها واليها .

والنفاق يلازم الانسان فى حياته ملازمة شيطانه ويتراآى له عونا وساعدا كلما تقلبت له الأحوال وأعوزه الحظ أو تراكمت عليه المحن . وهو الينبوع الذى تفجرت من أعماقه جميع المآسى والآثام والشرور ، وله تاريخ واسع بدأ منذ بدأت البشرية ، وهو فى ذاته جبن وضعف ، ولكنه يتضمن جرأة شديدة على معارضة الحق ، وقوة غادرة فى استصناع الباطل ، ومقاومة عقيدة لما قد يعترضه من عقبات . ويقذف أول أساطيره على الأديان فيزيفها ولعل أصدق مثال لذلك ما كان يزور به الكهنة عبادة الله ويقلبونها الى تماثيل وأصنام وطقوس مائزها الزيف والبهتان .

العالم بدون نفاق : ولنا أن نتصور العالم وقد عجز الناس عن النفاق والكذب ! أو اتفقوا أن ينبذوهما ! فأى تبديل يطرأ إذن على الناس ؟ أنراهم يختلفون أم يتقاضون ؟ أم يتضاربون أم يتحاربون ؟ وهل ترى شيئاً من المآسى القاسية التى تفشو الآن فى حياة الأفراد والجماعات ؟ لا يشك أن أغلب هذه الشرور تقطع جذورها بانقطاع النفاق وإذن لساد السلام واطمأن الناس وسعدوا بالمحبة والتضامن .

النفاق فى الأمور الخطيرة : ويتسلط الكذب عامة والنفاق خاصة على جميع أشكال الحياة ، إلا أن النفاق ينصرف عادة إلى الأمور الهامة الخطيرة . وكلما اشتد خطر الأمر بعد عن مناط الكذب البسيط ووقع فى منطقة النفاق ودخل فى أوضاعه المعقدة . ولذلك كان أشد أوضاع النفاق ما تعلق بالجيوش وأعمال الحرب وما تعلق بالحكم وأعمال السلطان .

النفاق فى الحروب : وهنا يأتى لنا أن نقف طويلا ونمعن الأفكار مليا فإذا صحائف التاريخ فى جميع عصوره وإذا بالأحداث الحاضرة تجرى كلها على قواعد عتيدة مشتقة من النفاق .

الجاسوسية : فالقاعدة المعروفة فى الحروب الحاضرة المبيدة أن أكثر من نصفها يقع فى نطاق الجاسوسية أو

ماأطلقوا عليه لفظ « الطابور الخامس » ، وأن الحروب الخفية بين أقلام المخابرات أشد وأنكى من حروب الجيوش البرية والبحرية والجوية ، وأن النجاح فيها أو الفشل أشد أثرا وأبعد نتيجه ، وما أعمال الجاسوسية وأقلام المخابرات إلا ضروب معقدة مرتكزة على النفاق فى نطاقات واسعة ونظم مدروسة مرتبة .

النفاق فى السياسة والحكم : وأما أعمال الحكم والسلطان ومقتضيات الاجتماع بصفة عامة ، فمجال النفاق فيها أوسع الأطراف . وللكذب والشرور فيه صولات وجولات . نرى ذلك واضحاً فى ميدان السياسة والدبلوماسية بصفة خاصة ، وما يعقد لها من هيئات ومؤتمرات ، وما تلك الهيئات والمؤتمرات إلا معارض ومنتديات ، يستعرض فيها رجال السياسة والعلم والغاصبون والسفاكون ومن تبعهم منتهى ما وصل اليه العقل البشرى من أفانين النفاق والكذب وأساليب الخداع والدهاء والخبث ، مخلوطاً بالألفاظ المعسولة الجميلة ومصبوغا بألوان مستعارة من من الحق والمنطق ومختبئاً تحت أستار جميلة من العلم والأدب والبلاغة والخطابة . ولذلك نراها ابتدعت للأوضاع الباطلة ألوانا زاهية فسمت الفتح والغزو استعمارا ، فلما بهت اللون صبغت له كلمات الانتداب والوصاية واستعملت ألفاظ التعليم والتمدين

والتدريب للحكم الذاتى تغطية لمعانى النهب والسلب وانتهاز الفرص. وأنتجت هذه الأخلاط المتنافرة نتائجها الطبيعية وهو انتشار الروح المدمرة وفنون الأبادة والتخريب. وتجرى الأمور فى مسائل الحكم والادارة على هذا النمط حيث تنشأ ألفاظ جميلة براقة تضم طرفا من الحق وتخفى أطرافا من النفاق كالدهاء والكياسة والدربة ودقة الادارة.

النفاق يتداخل فى الجرائم الخلقيه : والنفـــاق عنصر أساسى يتداخل فى تركيب كثير من الجرائم الخلقية التى تنخر كالسوس فى المجتمع كالغيبة والنميمة والوشاية وشهادة الزور — ثم هو إلى جانب ذلك يغرس فى حنايا النفس أمراضاً عضالا تقذف بها إلى الهلكة كالغرور والزيف والصلف والكبرياء والحقد والحسد والضغينة.

النفاق والكذب ألفاظ مكروهه : والكذب والنفاق ألفاظ مكروهة مرذولة لايتعامل الناس بها وإن تعاملوا بمدلولها، ويمعنون فى اصطناعها وفيض الفضـــائل تسيل من أفواههم، ولا يذكرونها الا ومعها أنماط من الزجر البالغ للتباعد عنها والاشارة بهدى الصدق والنجاة به، نجد الكثير من ذلك فى جميع أسفار الحكمة والسياسة والاخلاق. هذا يدل أن قاعدة

واحدة اضطرد العمل بها وهى نبذ الفضائل واصطناع النفاق لبلوغ المآرب .

ماكيافلى والنفاق : ولا نجد أحداً وصلت به الجرأة على الصراحة فى هذا الشأن وتنبيه الناس إلى نبذ الفضائل عند الاقتضاء إلا رجلا ايطاليا مفلوكا من كتاب القرن السادس عشر الميلادى . لا يزال رجال السياسة إلى عصرنا الحاضر يتبعون تعاليمه ، ويهتدون بهديه ، إذ يحض على عدم الاهتمام بالصدق والفضائل ، وذلك الكاتب هو نيقولا ماكيافلى الذى ولد عام ١٤٦٩ وتوفى عام ١٥٢٧ ميلادية .

ونظرا لخطوره تعاليم ماكيافيلى التى أودعها كتابه الأمير ، وإلى اعتبارها المثل الأعلى لدى جميع رجال السياسة والحكم منذ وضعت إلى عصرنا الحاضر ، ثم إلى ماتضمنه هذا الكتاب من أساليب النفاق والخداع ، فإنى أرانى مضطرا أن أعرض طرفا وجيزا أو على الأصح صحيفة واحدة مما نصت عليه تلك التعاليم ، لعل فيها موضعا للبحث والمقارنة لما نحن بصدده مع شىء غير قليل الطرافة .

بعض تعاليم ماكيافلى : يقول ماكيافلى فى كتابه الأمير تحت عنوان « كيف يكون وفاء الأمراء » مانصه : لا ينبغى للأمير

الحذر أن يحفظ العهود اذا كانت ضد مصلحته ، وما دامت الأسباب التى دعت للوعد قد انقضى عهدها . (المقصود بالأمير حاكم المقاطعة وقد كان العهد عهد الاقطاعيات) اذا كان الناس كلهم أخيارا فإن القاعدة التى ذكرتها تكون لا شك سيئة ، ولكنهم أشرار ولن يحفظوا لك عهدا فلست مضطرا لحفظ عهودهم . ثم أن الأمير لا يفقد حيلة شرعية يركن اليها اذا لم يف بوعده ، وأن الأمثال فى هذا الباب كثيرة تثبت أن السلم قد تزعزع مراراً وأن الوعود قد نسيت تكرارا بأمراء لاوفاء لهم , وأن الذين استطاعوا من الأمراء تقليد الثعلب قد فازوا وانتصروا ، ولكن من الضرورى أن يخفى الرجل هذه الخليقة وأن يكون ماهرا فى فن التظاهر بغير شعوره ، ثم أن الناس من البساطة بمكان وهم أصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا يعدم الخادع فريسته . ثم يقول ما كيافلى بعد ذلك بقليل مانصه : « ليس من الضرورى أن يتصف الأمير حقيقة بكل الفضائل التى سبق الكلام عليها ولكن من الضرورى أن يذاع عنه الاتصاف بها ، واننى أجسر فأقول أن الاتصاف بكل تلك الفضائل خطر ولكن الظهور بالتحلى بها نافع . إنه من الخير لك أن تظهر بالتقوى والأمانة وحب الانسانية والدين والاخلاص

وأن تكون فى الواقع كذلك ولـكن ينبغى أن تكون متنبها
بحيث اذا اضطرت للتحول الى الصفات الأخرى كان ذلك بدون
مشقة . وينبغى العلم بأن الأمير لا سيما الحديث لا يمكنه ممارسة
كل تلك الخلال الموصوفة بالحسن لدى الرجال لأنه يكون فى
أغلب الأحيان مضطرا للاحتفاظ بالملك فيعمل ضد الايمان
والاحسان والانسانية والدين ، لذا ينبغى أن يكون له عقل
سهل التحول والانتقال حسبما يقتضيه تقلب الأحوال وألا يترك
صنع الخير ما استطاع ، وأن يكون قادرا على صنع الشر اذا
احتاج لذلك . وينبغى للأمير ألا يحرك لسانه بكلمة لا تدل على
أنه متحل بالخلال الخمس السالفة الذكر ، فلا يرى فيه الرائى ،
ولا يسمع منه السامع إلا الأمانة والعفة والتقوى وحب
الانسانية ، وأهم تلك الصفات صفة التقوى ، لأن الرجال
يحكمون عادة بالنظر لا بالخبرة ، وكل الناس ترى فيك مظاهرك ،
وقليلون يلمسون حقيقتك ، وهؤلاء القليلون لا يستطيعون أن
يقاوموا الكثيرين المحتمين بسلطة الأمير ، فليعش الأمير
وليحافظ على عرشه دون النظر فى الوسائل ، فأنها ستبقى على
الدوام معتبرة شريفه يمدحها الكل ، لأن العامة مأخوذون
بالظواهر وبنتائج الأشياء . والعالم لا يشمل الا العامة ،

والقليلون من الخاصة لا يظهرون الا عندما يضل الكثيرون .

قيمة تعاليم ما كيافلي : أرأيت أيها القارىء مقدار الدين والأخلاق فى نظر ما كيافلي ؟ ومع ذلك فقد اعتبر كتابه « الأمير » أعظم كتاب فى فلسفة السياسة ، واعتبر ما كيافلي أنه رفع الستار عن اسرار صناعة الحكم الدقيقة ، وأنه وضع علماً جديداً بحذافيره هو علم السياسة العملية حل فيه ألغاز السياسة ، وصير صنعة الحكم الصعبة المراس عملية من عمليات الجبر البسيط ، وغذى بآرائه وحكمه نفوس جميع أبطال التاريخ الحديث (راجع كتاب الأمير وترجمته للأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى طبعة مطبعة المعارف سنة ١٩١٢) واشتق من اسمه مذهبا فى السياسة سمى ما كيافلزم يتضمن مبادئه التى ترتكز على كل عمل قائم على الخبث والدهاء المقرونين بالأثرة وتقديم الغاية على حسن الواسطة . وقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن اسم ما كيافيلت أصبح علما على كل سياسى شديد قوى العقل والقلب لا يقف به الشرف أو العفه أو هيبة الله دون اقتراف أفظع الآثام لبلوغ الغاية (من كتاب الأمير السابق الاشارة إليه) .

والآن لعلك أيها القارىء اتخذت من البيان السابق مجهرا فوضعت تحته كثيرا من الأحداث والأشخاص التى تقوم على

رؤوس السياسة والسلطان ، ثم وضعت تحته بعد ذلك كثيرا
مما يصيب شخصك من الأحداث وما يصل إليك من اصدقائك
واقربائك ومعارفك من خير أو شر ، فإن هذا المجهر قمين أن
تنفذ أشعته فى تلك الجسوم فيكشف لك عن مكنوناتها ويضىء
لك بين الظلمات صراطا حريزا عن الغش والخداع .

ولقد حفز ماكيافلى القلوب المريضة أن تستغرق فى
أسباب مرضها ، وأن تسدر فى غلوائها وأهوائها ، وجعلها
ضحية لشهوة الحكم والسلطان . وبعد أن كان الحكام ورجال
السياسة يمشون فى النفاق والكذب مشية الحذر المترقب الوجل
ويعتبرون أنفسهم خارجين عن حدود الدين والقانون إذا بهم
يجدون من ماكيافلى مرشدا يعلمهم أن البعد عن النفاق باسم
الدين أو الحكم أو الخلق الحسن وهم وحمق لا كياسة فيه مادام
أمر الملك يقتضى ذلك . وكأن تعاليمه كانت رقية من رقى ابليس
مست أحد أغلاق جهنم فانفتح بمسها ألوف من أبواب الرجس
يفور نتنها ويصاعد لهيبها على ضحايا البشر .

وفرق واسع أن يرتكب الشر باسم الشر طوعا لشهوة
جامحة تأخذ بخناق صاحبها ، وبين أن يرتكبه وهو يتشدق أنه
يفعل حقا لا إثم فيه ، ويدخل الغش على نفسه فيخدعها ويوهمها

أن ما يفعله كياسة تتفق مع اتساع علمه وحدة ذكائه .

النفاق سابق لما كيافلى : لم يكن العالم خاليا من النفاق قبل ما كيافلى فالنفاق وليد الغرائز فى أوضاعها الضالة ؛ ولم يخل منه شىء حتى الدين والتشريع والحكمة . ولكن ما كتبه ما كيافلى قد فتح الأبواب وحرض على الجرأة على الدين والأخلاق ، وضحى بكل شىء فى سبيل الحكم وبث تلك الأفكار السامة فى عقول عدد لا يحصى ، ولا زالت تلك الأفكار تتشكل وتتكاثر كما تتكاثر الجراثيم الفتاكة .

والآن أرجع بك أيها القارىء تسعة قرون قبل ما كيافلى لأعرض عليك ضروبا أخرى من علاج النفاق تنزهت أن تنزل إلى سوقه ثم أفصل لك مثلا شرفت وارتفعت أن يدنسها النفاق ولكنها أحاطت به بفضائلها فحبسته فى نطاقه الضئيل كالكلب العقور : يحبس فيقتله نباحه أو تتهذب ضاريته . وتلك المثل إنما كانت فى الطريقة التى عالج بها رسول الاسلام محمد عليه السلام أهل النفاق مع شدة ضرواتهم ودهائهم إلى ما كان من خيبتهم وضياع أمرهم .

النفاق صدر الاسلام : لقد كانت قصة النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة طويلة طريفة كأنها حلقات صراع

بين الاسلام والنفاق . بدأت مذ دخل الرسول الكريم المدينة وتداخلت حوادثها فى أغلب حوادث الدعوة الاسلامية ،وحارب المنافقون النبي صلى الله عليه وسلم حروبا خفية مليئة بالدسائس والتجسس والتآمر ، وحاولوا أن يؤلبوا عليه وعلى المسلمين أشتات الكافرين وضعاف القلوب ، وكانت لهم فى ذلك مكائد خطيرة عصم الله نبيه الكريم والمسلمين منها ولم يحيدوا قط عن نهج الخلق المستقيم ، ولم ينزلوا إلى درك مقاومة النفاق بالنفاق ، ولم يفكروا فى طرح تعاليم الدين والأخلاق للرد على تلك المكائد .

درء النفاق والمدينة الفاضلة : وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أن يدرأوا النفاق بالنفاق . فان الاسلام أتى بتعاليم خاصة ومبادىء معينة تتنافى مع النفاق وتحقق المدينة الفاضلة أو النموذج الأعلى للدولة ونظام الحكم ومقتضيات الاجتماع . وهو حلم طالما تراآى فى أذهان الفلاسفة والحكماء منذ العصور السحيقة فى القدم . ولسنا بصدد تفصيل ماورد عن سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم عن ذلك ، ولكن كتاباتهم وفلسفتهم كانت محاولات نحو السعي وراء الكمال بعد أكثرها عن الأمكان العملى ، وأغرق بعضها فى التصورات الخيالية البعيدة عن طبائع البشر ،وحاول البعض الآخر أن يقربوا منها ، وفشل

الجميع فى تحقيق تلك المدينة سواء فى كل ما تخيلوه أو فى بعضه .
كذلك فشل أصحاب نظرية الانسان الكامل Superman فى تكييف المثل الأعلى للفرد وفى تحقيقه ، وظل الحلم فى كليهما يتراآى كالسراب أمام الفلاسفة ، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فحقق المدينة الفاضلة أو الدولة الرشيدة النموذجية فى المدينة (يثرب) وما دخل تحت لوائها ، كما تحقق الانسان الكامل فى شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكانت لمحة خاطفة أضاءت فى ثنايا الزمن لتكون نموذجا يقتدى به الأفراد والجماعات إذا تراضوا وتواصوا على ارتياد مسالك السعادة .

وللمدينة الفاضلة أو الدولة الرشيدة أركان ثلاثة : الرئيس الكامل والنظام الكامل والشعب الكامل . أما الرئيس الكامل فقد تحقق فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم إذ كان كامل الخلق والخلق حريصاً على صالح الجماعة والأفراد قائداً حازماً وسياسيا أريبا إلى غير ذلك مما ورد فى وصف ذاته الكريمة مما يستحيل أن يجتمع فى فرد واحد ويكفى أن الله تعالى قال مخاطبا له فى القرآن الكريم «وإنك لعلى خلق عظيم» . وأما النظام الكامل فهو النظام الذى أتى به القرآن الكريم فى قواعد كلية جامعة صالحة لجميع الأفراد والجماعات فى جميع العصور والأمكنة . فكان من

إدارة النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات وصاحب الشخصية الكاملة وعلى نظم القرآن أن وجد الشعب الكامل :

جمع أشتات العرب : ومن عجب أن تكون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في شعب يدرج في أسوء نظم الاجتماع والحكم، وتسوده الفوضى الخلقية ، وتمزقه النعرة القبلية وحمية الجاهلية فتقوم فيه الحروب لأتفه الأسباب ، وتظل نيرانها مستعرة سنينا طوالا من أجل التنابذ بالألفاظ والتفاخر الكاذب بالأنساب وما أشبه ذلك من توافه الأسباب . ومع ذلك يجمع النبي صلى الله عليه وسلم شمله ، ويحكم أوامره ، تحت أبدع دستور وأتم نظام ، ألا وهو نظام القرآن الذى فصل أحوال الفرد وأحوال الجماعة وعلاقة كل منهما بالآخر فى دقة لا يمكن الإحاطة بتفصيلها .

وكان قد أعجب العجب علاج النفاق، وهو داء العالم العضال، وذلك الصراع الذى دام مايقرب من عشر سنوات فكان فى كل حلقة من حلقاته آيات من الهدى والإرشاد الحكيم .

ولقد أردنا أن نرفع من أستار الماضى ثمانية وستين سنة وثلثمائة وألف لنتفقد ماكان شأن ذلكم الأبرار وهم يهتدون بكلام الله العلى الأعلى ، ويأتمرون بأمر سيد الخلق ويقتدون به

لنعلم ما كان من شأنهم مع طغاة النفاق وجبابرة الكذب وزعماء التجسس ، لعل فى ذلك عبرة وذكرى ، ولعل فيه صقالا للنفس من بعض أوهامها وجماحاتها ، ولعل فيه تخفيفاً وعزاء مما نقاسيه من آلام تطاحن النفاق وتطاعن الرذائل

* * *

تاريخ العرب والمدينة : وقبل أن ندخل فى ذكر تاريخ المنافقين ونشأتهم والأحداث التى أحدثوها ، نرى لزاما علينا أن نذكر فى هذه المقدمة إلمامة وجيزة عن تاريخ العرب ونظمهم فى الحكم والاجتماع بصفة عامة ، ثم بتاريخ المدينة المنورة ، أو يثرب ، كما كانت تسمى قبل الاسلام بصفة خاصة ، وذلك لاتصال تاريخ المنافقين ونشأتهم وحوادثهم بذلك اتصالا متشابكا ، ولأن من الأسباب الكبرى التى أوجدت هذا الحزب وأحكمت أواصره ضغينة عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى على النبى صلى الله عليه وسلم إذ كان على وشك أن يتوج ملكا على يثرب .

لم يكن العرب دولة واحدة والسبب فى ذلك : لم يكن العرب دولة واحدة قط قبل الاسلام ، ولم تتكون فيها دولة ذات شأن إلا فى الجزء الجنوبى الشرقى منها وهى بلاد اليمن . وإنما نشأت دويلات صغيرة لم تبلغ شأواً كبيراً فى الحضارة وهى دول المناذرة والغساسنة وكندة ، وكانت على الدوام تابعة لغيرها

من الدول العظيمة كفارس والروم كما كانت نشأتها فى جهات معينة لظروف خاصة .

والسبب الذى لم تنشأ من أجله ببلاد العرب دولة ذات حضارة واسعة يرجع إلى طبيعة البلاد ، فانها صحراء شاسعة الأطراف يبلغ طولها نحو ٦٥٠ ميلا وعرضها نحو ٦٢٠ ميلا وهى خالية تمام الخلو من الأنهار ، مجدبة لا ينزل المطر فيها إلا نادرا وذلك فيما عدا اليمن .

دولة اليمن : والعمران يكثر أو يقل طبقا لمقتضيات الحياة ، ولهذا اتسعت دائرته بعض الاتساع فى بلاد اليمن التى أطلق عليها لذلك مؤرخو اليونان اسم العرب السعيدة بينما لقبوا غيرها بالعرب الصخرية والعرب الصحراوية . وقد استطاع أهل اليمن فى الأزمان السحيقة فى القدم أن ينظموا الانتفاع بمياه الأمطار ، وأقاموا لها سدودا اشتهر منها فى التاريخ سد مأرب ، وتمكنوا بذلك أن يزرعوا الارض ، وقامت لديهم مدنية واسعة ودولة قوية ، حكمها ملوك لا يزال التاريخ يقص من أعمالهم الكثير . وأهم الدول التى نشأت باليمن ثلاث : الدولة المعينية فالدولة السبئية فدولة حمير والتبابعة . ومن ملوك هذه الدول قحطان ويعرب ويشجب وحمير وذو الازعار وذو نواس

والملكة بلقيس . وقد أنشئوا المدن الكبيرة والقلاع العظيمة
والقصور الفخمة وكان ملكهم وراثيا وسلطات الحكم لديهم
مركزة فى يد الملك ، وسكوا النقود ونقشوا عليها صور الملوك
وأسماءهم وأسماء المدن التى ضربت فيها بالحرف المسند ، وزينوها
برموز سياسية واجتماعية . وكانت الامة منقسمة فى عصورهم
إلى أربع طبقات (١) الجند المسلح (٢) الصناع (٣) الفلاحين
(٤) التجار . وقد ازدهرت لديهم التجارة والصناعة والزراعة
وبلغت فى ذلك شأواً بعيداً ، وامتدت مزارعهم وحدائقهم
واستعمروا كثيرا من البقاع القابلة للاستعمار بين اليمن والشام .
فلما اتسعت رقعة دولتهم أصابهم ما يصيب الدول فانغمسوا فى
الملاهى وعكفوا على الملذات وكثر ظلمهم وأعرضوا عن عبادة
الله وتقواه فسلط الله عليهم سيل العرم فخرب عمائرهم وبساتينهم
وأهلك منهم خلقا كثيراً وتفرقوا بددا فى صحراء جزيرة العرب
وقد ذكر الله تعالى شأنهم فى قوله عز وجل « لقد كان لسبأ فى
مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم
واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا
عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط
وأثل وشىء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل

تجازى إلا الكفور » (سورة سبأ الآيات ١٥ و ١٦ و ١٧) .

دول المناذرة والغساسنة وكندة وتبعيتها لغيرها : كان من القبائل التى فرقها سيل العرم من هاجر إلى تخوم الفرات فيما يجاور الحيرة والانبار وكونوا دولة المناذرة ، كما هاجر آخرون إلى تخوم دمشق وكونوا دولة الغساسنة ، ولجأ بعضهم إلى شمال حضرموت والجزء الجنوبى الغربى من نجد داخل الجزيرة وكونوا دولة كندة . أما المناذرة فهم من قبيلة لخم وأولهم مالك بن فهم ومنهم النعمان بن امرىء القيس والمنذر بن النعمان وعمرو بن هند . وأما الغساسنة فهم من الأزد ومن ملوكهم الحارث بن أبى شمر والمنذر بن الحارث . وأما كندة فهم بطن من كهلان بن سبأ وأصلهم من البحرين أجلوا منها إلى حضرموت ، واستخدمهم التبابعه فى مصالحم وكانوا ينافسون المناذرة فى التقرب من ملوك الفرس . ومن ملوكهم حجر بن عمرو ثم الحارث ابن عمرو .

لم تكن هذه الدول الثلاث سوى دويلات صغيرة خرجت منذ مدة طويلة من نظام القبائل وألفت النظم السياسية ومرنت على أوضاع الحكم فأنشأته فى البلاد التى هاجرت إليها فى صورة مصغرة — ولقد كانت كل من دولة المناذرة والغساسنة أن

بجوارها دولة كبرى وذلك إذ جاورت الأولى فارس وجاورت الثانية الروم وكانتا كبرى دول العالم فى ذلك الوقت ، فأصبحت المناذرة تابعة لفارس كما تبعت الغساسنة الروم ، وصارت كل منهما تسير تبعا لسياسة الدولة التى تتبعها حتى فى الحروب . ورأى كل من دولة فارس والروم أن فى ذلك مصلحة لها لأن تلك الدويلات الصغيرة كانت لها بمثابة صمام الأمن فى بلاد العرب ، فقد كانت هذه البلاد موحشة قفراء شاسعة الأطراف لا تغرى الفاتح المستعمر من الملوك ذوى الأطماع أن يحـاول فتحها أو استعمارها ولا يجازف أن يلقى بجيوشه لتهلك فى أتون فيافيها الشاسعة فتبتلعها ، ثم أنه لا غنى للقوافل عن ارتيادها للتجارة وغير التجارة . فكانت هذه الدويلات الصغيرة تكفى ملوك الدول الكبرى مؤونة الصلة بالقبائل الضاربة فى جوف هذه الصحراء ، وبقيت أيدى الفرس والروم تلعب مع أصحاب التيجان فى هذه الدول فتثبت تعيينهم وتصلهم وتسخرهم ويمشون على هديها وسياستها ، ولم يشذ عن ذلك إلا المنذر الثالث بن امرىء القيس بن ماء السماء ٥١٤ — ٥٦٣ ميلادية فى عهد قباذ ملك الفرس . وسبب ذلك أنه ظهر فى بلاد الفرس فى ذلك الوقت مذهب مزدك وكان يرمى إلى الاشتراك فى الأموال والنساء ،

وكان بعض أعيان الفرس قد أحرزوا أموالا كثيرة ومجوهرات وعقارات كبيرة القيمة ، فأراد قباذ أن يستعين بهذا المذهب على مشاركتهم ، فثار الاشراف فى وجه قباذ وأنكر المنذر هذه البدعة وانضم إلى الثائرين على كسرى ، فتغير قباذ على المنذر ووجد فى الحارث الكندى ملك كنده خصما منافسا من العرب للمنذر ، وكان قد امتد سلطانه إلى نجد ووداً الحظوة لدى ملك الفرس ، فاستنجد به قباذ على المنذر وغزا الحيرة وتغلب على جيوش المنذر ، فهرب وظل مختبئا إلى أن توفى قباذ ، وتولى أمر الفرس ابنه كسرى أنو شروان ، وكان على غير رأى والده ، فخرج المنذر من مخبئه وأقبل عليه فرحب به وأعاده إلى منصبه بعد قتل مزدك وهرب الحارث الكندى وكان ذلك نهاية الدولة الكندية حيث انقسمت عقب ذلك إلى أمارات صغيرة لكل أمير سيادة على بعض القبائل وظلت كذلك حتى قضى عليها الاسلام .

ومن أشد الدلائل على تبعية الدولتين العربيتين لفارس والروم أن كثيرا ما وقعت الحرب بين المناذرة والغساسة مع أن كليتهما عربيتان ، وذلك عند وقوع الحرب بين فارس والروم ، ومع أن كلا من فارس والروم لم تحاول مطلقا أن تتغلغل فى

عليهم البلاد زهداً فيها لعدم الفائدة من غزوها . والمرة الوحيدة التى حاول الفرس فيها ذلك منوا بشر هزيمة بفضل تضامن العرب وذلك فى موقعة ذى قار سنة ٣ للبعثة النبوية .

النظام القبلى فى بلاد العرب : هذه هى الدول التى نشأت ببلاد العرب . وفيما عدا البقاع التى نشأت فيها هذه الدول ، فإن النظام القبلى وهو النظام الطبيعى للبدوى المتنقل هو الذى كان يسود سائر البلاد وخاصة أشدها جدبا وهو الحجاز لأنه عبارة عن سلسلة الجبال التى تمتد من الشمال عند بوادى الشام حتى تنتهى إلى الجنوب عند حواضر اليمن على مسافة تتراوح بين ثلاثين وخمسين ميلا شرق البحر الأحمر فيطلق على قسمه الغربى من البحر إلى سلسلة الجبال اسم تهامه ويطلق على قسمه الشرقى أى شرق سلسلة الجبال اسم نجد .

نشأت القبائل التى آوت إلى هذه البقاع على شظف من العيش . وكانت متصلة على الدوام بسائر الدول العربية بحكم أنسابها وعاداتها وتنقلاتها إلا إذا استثنينا من تحضر بمكة . ومن هذه القبائل جرهم وأولاد إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام حيث تزوج من جرهم وأنجب اثنى عشر رجلا تكاثر نسلهم وتفرقوا فى تهامه وصار إليها الشرف حتى نزحت اليها من

اليمن قبيلة خزاعة فاستولت على شرف جرهم وانتقلت اليها زعامة القبيلة .

النظام القبلى لا يعرف الملكية : لم تعرف هذه القبائل نظام الملكية ، ولم يكن بينها نظام مسطور ولا دواوين ، وإنما كانت تعيش على النظام القبلى ولا تعرف رئاسة الارئاسة القبيلة . وكانت رئاسة القبيلة فى قريش مقسمة الأجزاء ، كل جزء منها يتمثل فى وظيفة معينة ، وقل أن تجتمع فى شخص واحد وهى خمس وظائف : (١) رئاسة دار الندوة وهى دار أنشأها قصى كبير قريش ليجتمع فيها شيوخ القبيلة للتشاور فى المسائل الهامة . (٢) اللواء وهو رمز لقيادة الجيش (٣) الحجابة وهى خدمة الكعبة الشريفة وفتح بابها (٤) السقاية وهى سقى الحجيج (٥) الرفادة وهى إطعام من لا زاد معه من الحجاج .

سكان المدينة قبل الاسلام : أما المدينة المنورة فانما أطلق عليها هذا الاسم بعد أن هاجر اليها النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت تسمى قبل ذلك يثرب . ولم ينشأ فيها قبل الإسلام أى دولة ولا نظام من نظم الحكم وعاشت فى جميع أطوارها قبل الإسلام فى نظام قبلى : حكومتها حكومة القبيلة . والذى يتبين من التاريخ أنها كانت فى العصور القديمة موطنا لثلاث قبائل من اليهود : بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، هاجروا من بلادهم

من الشمال ثم صاروا يزرعون ماصلح من أرضها كما استوطنوا من حولها خيبر وفدك ووادى القرى إلى أن نزل حارثه بن ثعلبة العنقاء من أوائل ملوك الغساسنة على يهود يثرب وخيبر . وسبب ذلك أنه لما هرع غسان إلى الشام عقب سيل العرم كون بها دولة الغساسنة وكان أوائل ملوكها وخلفه ابنه ثعلبة العنقاء ولما مات ثعلبه تولى بعد ابن أخيه عمرو فكان ذلك سببا لسخط ابنه حارثه فرحل من الشام إلى الجنوب ونزل على يهود يثرب وخيبر وسألهم الحلف والجوار والأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل واستعمر ولداه أوس وخزرج الأرض وتناسلوا وكثروا ، ولم يكونوا أول أمرهم أهل نعم ولا شاء لأن البلاد لم تكن بلاد مرعى ولم يكن لهم نخل ولا زرع ، فاشتغلوا لدى اليهود يزرعون الأرض ويحيون مواتها والأموال لليهود إلى أن كثروا فغلبوا اليهود على الأرض وقاتلوهم وصارت الغلبة لعرب الأوس والخزرج .

قبائل المدينة : لهذا كانت المدينة قبل الاسلام مكونة من خمس قبائل : اثنتان من العرب هما الأوس والخزرج وثلاثة من اليهود هم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع . وكانوا يعيشون على النظم القبلية ، ولكل قبيلة زعيمها ورؤساؤها يتدافعون مع

القبائل الأخرى على أساس التفاخر والتناصر والتنافر دون أن تكون هناك دولة أو رئيس موحد .

الخلاف بين الأوس والخزرج : ودب الخلاف بين الأوس والخزرج بعد أن توطدت أقدامهم بالمدينة ، وقامت بينهم حروب عديدة بسبب خلافات فردية كانت تثور لها النعرة القبلية . وكان النصر تارة للأوس على الخزرج وغالبا للخزرج على الأوس . وقد اشتدت هذه الحروب ودخلت فى أواخرها قبائل اليهود فانحازت قريظة والنضير للأوس وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج . وبلغت هذه الحروب أشدها قبيل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم .

حروب الأوس والخزرج وظهور زعامة عبد الله بن أبى بن سلول :

ونظرا لأن تلك الحروب تعطينا صورة مفصلة لحالة المدينة قبيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها فانا نورد بعضا منها ، وخاصة فيما يتعلق بأحد رؤساء الخزرج حيث ظهر كثيرا فى هذه الحروب باعتباره سيداً مطاعا وزعيما عادلا حليما ، ثم ما لبث إذ دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أن صار ثعبانا خطراً وتزعم النفاق حتى لقب فيما بعد رأس المنافقين وكثرت مكائده للمسلمين وهو عبد الله بن أبى بن سلول .

وعبد الله بن أبي بن سلول من بني عوف بن الخزرج . وكان أول ظهوره في حروب الأوس والخزرج يوم السرارة وهو يوم كان فيه حرب شديد بين عمرو بن عوف من الأوس وبني الحرث من الخزرج وكان سببها أن رجلا من بني عمرو قتله رجل من بني الحرث فعدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة ، فاستكشفوا أهله فعلموا كيف قتل ، فتهيئوا للقتال وأسلموا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب فالتقوا بمكان يقال له السرارة وعلى الأوس حضير بن سماك والد أسيد بن حضير الذى صار فيما بعد من أجلاء الصحابة ، وعلى الخزرج عبدالله بن أبي بن سلول أبو الحباب فاقتتلوا اقتتالا شديدا دام أربعة أيام ثم انصرفت الأوس إلى دورها وتبادل شعراء الاوس والخزرج الفخر بما حدث .

وصار عبد الله بن أبي يشترك في الحروب التي تلت ذلك وهي كثيرة ، وكانت تنشب لأسباب تافهة فيتسبب عنها القتل ، ثم تولى قيادة الخزرج في حرب الفجار الأول وهي حرب قامت بين القبيلتين لقتل الأوس ثلاثة غلمان من الخزرج كانوا رهنا للديات في صلح سابق بينهم . ولكن عبد الله بن أبي خرج على الخزرج ، وأبى الخروج معهم في حرب الفجار الثاني الذى أعلنته الأوس ضد الخزرج وذلك لأن الخزرج في ذلك الوقت

نقضت عهدها بدون سبب وكان ذلك العهد بينها وبين يهـــود قريظة والنضير ألا يناصروا الأوس وأودعوا الخزرج أربعين غلاما رهنا لعدم التعاون مع الأوس ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول هذا بغي وإثم ، ونهى عن قتلهم كما نهى من دعا إلى ذلك وهو عمرو بن النعمان البياضي عن قتال الأوس ، وحذره بنوه عاقبة البغي . ولم يقتل عبد الله بن أبي ومن أطاعه من كان لديهم من الغلمان وأطلقوهم .

يوم بعاث : وكان من أثر ذلك أن عادت يهـــود قريظة والنضير إلى مناصرة الأوس ، واجتمعت الخزرج وحشدت وأرسلت إلى حلفائها من أشجع وجهينه كما أرسلت الأوس إلى حلفائها من مزينة . ومكثوا أربعين يوما يتجهزون حتى التقوا ببعاث من أعمال قريظة وتخلف عبد الله بن أبي بن ســـلول واقتتلوا اقتتالا شـــديداً وقتل قائد الخزرج عمرو بن النعمان البياضي وانهزمت الخزرج ، فبينما عبد الله بن أبي يتردد راكبا قريبا من بعاث يتجسس الأخبـــار اذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلا فلما رآه قال ذق وبال البغي .

الميل الى الوئام ونبذ الحرب والعزم على تتويج عبد الله بن أبي ملكا على المدينة :

كان يوم بعاث آخر حروب كثيرة بلغت زهـــاء العشرة

فأنهكت الأوس والخزرج وعطلت مصالحهم وأفنت كثيرا منهم فسئموا القتال وبدأت نفوسهم تنصرف من الحمية الجاهلية إلى روح الوئام ومالوا إلى الاستقرار والسكينة ومعهم اليهود . والظاهر أن هذه الروح قد نمشت بهم إلى الميل والنظام وتقليد دول العرب التى نشأت فى الحيرة والشام وكندة تحت النظام الملكى لتنصرف كل من القبائل إلى مصالحها متضامنه تحت لواء الملكية بعيدة عن المنافرات القبلية . وقد روى المؤرخون أن الأوس والخزرج اتفقوا بعد أن سئموا القتال أن يتوجوا ملكا عليهم عبد الله بن أبى بن سلول لما رأوا فيه من الحلم والكياسة ، وصاروا يجهزون لهذا التتويج إلى أن دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وعقد معاهدة بينه وبين الأوس والخزرج واليهود ، وانصرف الناس عن النعرة القبلية شيئا فشيئا كما انصرفوا عن تتويج عبد الله ابن أبى .

وهذا يعطينا صورة محددة بعض التحديد للحالة السياسية والاجتماعية التى كانت تسود المدينة وقت أن دخلها النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرا من مكة ، والتى كان لها شأن كبير

فى الحوادث التى تلت مقامه فى المدينة ، حيث بارزه اليهود بالعداء سرا وعلانيه ، وانضم اليهم من لم يؤمن من الأوس والخزرج وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول حتى اضطر إلى الاسلام رياء ليتمكن من الكيد والدسائس فتكونت من هذه الاخلاط منابت النفاق ومراقد الفتنة والتآمر .

الباب الأول

نشوء النفاق وموارث المنافقين

بدء النفاق

تضاؤل النعرة القبلية بالمدينة : بدأ الاسلام يدخل المدينة والنعرة القبلية بين الأوس والخزرج فى أوج شدتها أيام بعاث ، ثم بدأ يخشو وقد انفثأت حدتها وتقارب الخلاف بين القبيلتين حتى كاد أن ينعدم ، وبدأ التفاهم والقرابة والصوالح المشتركة تلعب دورها لتؤلف بين قلوبهم حتى أزمعوا أن ينشئوا بينهم دولة عربية بيثرب على غرار دول العرب ، وأجمعوا أن يولوا عليهم عبد الله بن أبى ، وذكر المؤرخون وكتاب السيرة أنهم كانوا يهيئون له تاجا لتتويجه ملكا عليهم . ووقف اليهود من ذلك موقفهم القديم منذ غلبوا على أمرهم بالمدينة : يصانعون الأوس والخزرج ما اتحدوا وما اختلفوا .

جامعة الأوس والخزرج تحت اسم الانصار : ودخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة بعد خمس سنين من حرب بعاث ، وقد

فشا الإسلام فشواً كبيراً ، وأسلم أغلب الأوس والخزرج وبدأت التسمية القبلية تتلاشى وتحل بدلها تسمية جامعة لها باسم الأنصار وهى تسمية مشتقة من صميم الإسلام لأنهم نصروا النبي صلى الله عليه وسلم .

الظواهر الجديدة بالمدينة — وتضامن الأنصار

وشهد اليهود والذين تخلفوا عن الإسلام من الأوس والخزرج كيف تظاهرت الجماهير فى استقبال النبي صلى الله عليه وسلم وكيف عجت طرقات المدينة بهذا الإستقبال ، مما لم يسبق له مثيل فى تاريخها ، ولم يكن لهم عهد بمثل هذا التضامن البعيد عن النعرة القبلية — ورد فى السيرة الحلبية أنه لما ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج من قباء سار وسار معه الناس ما بين ماش وراكب ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شحاً برسول الله وحرصاً على كرامته وتعظيما له حتى دخل المدينة ؛ ولعبت الحبشة بحرابها ، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شيء وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير (أى الأسطحة) عند قدومه ، وجعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا | من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا | ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا | جئت بالأمر المطاع

وجعل رؤساء الأوس والخزرج يدعونه للمقام لديهم ويستضيفونه وآمن أغلبهم وعلى رأسهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير من الأوس، وسعد بن عبادة من الخزرج رضوان الله عليهم أجمعين.

المعاهدة

وبدأ الرسول الكريم حياته بالمدينة بأن ركز وضعها السياسى فى معاهدة جامعة بينه وبين المهاجرين من مكة وبين بطون الأوس والخزرج وقبائل اليهود الثلاث من آمن منهم به ومن لم يؤمن. وكانت المعاهدة تشمل عدم الإعتداء من أحد على الآخر وضمانا للأمن بين الجميع ولهذا اضطر اليهود والذين تخلفوا عن الإسلام أن يدخلوا فى هذه المعاهدة خضوعاً للأمر الواقع من جهة ولأن التيار الذى واجهوه كان تياراً جارفا لم يكن لهم عهد بمثله ورأوا من الخرق والحمق أن يحاولوا مقاومته.

شئون الذين لم يؤمنوا ومع ذلك فان تلك المعاهدة لم تمنع كثيراً من اليهود من محاجة النبي صلى الله عليه وسلم وعداوته ومحاولة تأليب القبائل عليه وخصوصاً قبائل العرب الضاربة حول المدينة ولكنهم فشلوا. أما رؤساء الأوس والخزرج الذين لم يسلموا فكان لهم شئون أخرى غير شئون اليهود : فقد كانوا يدعون الشرف فى قومهم، ولم يكن ذلك الشرف الجاهلى فى غالب أمره حقاً إنما كان مرتكزاً على الطمع والدعاية والتهويش على الطباع البشرية، باتخاذ مظاهر العظمة الكاذبة والصلف والخيلاء. ودعوى العدل والعقل لم تكن تخرج من أفواههم إلا ضرباً من الهذيان ؛ ولذلك امتلأت قلوبهم بالحفيظة والضغن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وثارت نفوسهم للزعامة التى سلبوها، فوقعوا بين تيار الأغلبية الإسلامية الجارف وبين رغائبهم الواسعة وعقولهم العتيدة، فانتحى بعضهم ناحية العداوة الصريحة وعلى رأس هذا البعض أبو عامر عبد عمرو ابن صيفى بن مالك بن النعمان من رؤساء الأوس، وانتحى البعض الآخر ناحية النفاق والتظاهر بالإسلام تقية من القتل ورغبة فى التربص المسلمين والايقاع بهم، وعلى رأس هذا

الفريق عبد الله بن أبي بن سلول الذى كان ينتظر تاج الملك والذى أصبح فيما بعد رأس المنافقين وزعيمهم .

أبو عامر الفاسق

أما أبو عامر فكان قد ترهب قبل النبوة وزعم أنه ينتظر النبي المبعوث ، وصار يذكر للناس كثيراً من صفاته ويقول لهم قد قرب خروجه ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، واتضحت صفاته للأنصار واتبعوه ، حسده أبو عامر وأنكر نبوته . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال ما هذا الدين الذى جئت به ؟ فقال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال فأنا عليها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لست عليها ، قال بلى ، قال إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها . قال ما فعلت ولكنى جئت بها بيضاء نقية . قال الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً — يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم أى إنك جئت بها كذلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به . فكان هو ذلك عدو الله خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يقيم بالمدينة وهو بها . فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ،

فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً .

أبو عامر الفاسق فى احد وكان من مهازل غروره أنه لما خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم استصحب أتباعه الذين يعتز بهم وكان عددهم خمسة عشر رجلا وقيل خمسين غلاماً من الأوس . وذهب يغرر بقريش ويعدهم أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان . فلما التقى الجيشان يوم أحد كان أول من لقى جيش الأنصار أبو عامر فى الأحابيش وعبيد أهل مكة فنادى يا معشر الأوس أنا أبو عامر ، قالوا فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه الفاسق بدلا من الراهب . فلما سمع ردهم عليه قال لقد أصاب قومى بعدى شر ثم قاتلهم قتالا شديدا ، ثم راضخهم بالحجارة . وهو الذى حفر الحفائر ليقع فيها المسلمون يوم أحد ووقع فى إحداها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن غريب الأمر أن ابنه حنظلة كان صادق الإيمان وكان زوجا لجميلة بنت عبد الله بن أبى وكانت هى وعبد الله

ابن عبد الله بن أبي بن سلول مؤمنين صادقي الإيمان واستشهد حنظلة يوم أحد .

عبد الله بن أبي

أما عبد الله بن أبي بن سلول فكان شأنه في الضغينة والحقد للمسلمين وللنبي صلى الله عليه وسلم أشد من أبي عامر الفاسق ولكنه لم ير أن يلجأ إلى هذه الأشكال العنيفة . وكان من طبيعته وما عرف عنه في سابق أمره لين العريكة بحيث يتشكل للظروف كيفما كانت . فاضطر بادىء الأمر إزاء إسلام الغالبية من قومه وعشيرته أن يدخل في الحلف باقياً على شركه ، وأن يتظاهر بالود والمناصرة داخل شروط الحلف — بيد أن أتوناً من الحقد كان يتلظى في أعماق نفسه . فهذا التاج الذي كانت تتلألأ خرزاته أمام عينيه في يقظته ومنامه ، وهذا السلطان الذي كان يمني نفسه به ليصل إلى مصاف الملوك من آل غسان والمناذرة وكندة واليمن — ذهب كل ذلك جفاء فطار عقله من أجله شعاعا ، والتاعت نفسه حسرة عليه أشد اللوعة . وخيل إليه أنه واسع الحيلة قادر أن ينتهز الفرصة إذا سنحت أو يخلقها إذا لم تسنح فيقضي على من اعتقد أنهم حرموه التاج والسلطة . على أنه لم يجد لديه للوصول إلى

بغيته إلا أمرين : أحدهما أن يجمع شتات الذين لم يدخلوا فى الدين الجديد من الأوس والخزرج ويضم إليهم يهود المدينة من بنى قينقاع وقريظه والنضير ، والثانى أن يستعين بالنعرة القبلية ليوقد الفتنة بين المسلمين أو بينهم وبين القبائل الأخرى عند ما تكون مصلحته فى ذلك . وقد لقى ابن أبى من كثير من الأوس والخزرج واليهود آذاناً صاغية ونجح إلى حد ما فى إيجاد فرقة للتجسس بين المسلمين بلغت ما يقرب من ثلثمائة كان لبعضهم أعمال واضحة سوف نذكرها فى مناسباتها ، ولكن ابن أبى كان العامود الفقرى لهذه الفرقة ، والروح المدبر لأحداثها ، وكانت تدابيره ومكائده أبرز ما فعله ذلك الحزب البغيض.

اشتغال ابن أبى بالبغاء ويحسن هنا أن نذكر عن ابن أبى أمراً من أعجب أمره ، فإن ذلك الرجل الذى كان يرى فى نفسه الكفاية للملك ، وكان يهيء نفسه للتتويج وتقلد السلطة والحكم ، وكان يعتبر نفسه رأس الشرف فى الخزرج والأوس ، هذا الرجل كان يشتغل قوادا يتاجر بالبغاء . فقد ورد أنه عندما دخل الإسلام المدينة كان لعبد الله ابن أبى ست جوار معاذة

ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قول الله تعالى « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا (سورة النور ٣٣) كما روى أن عبد الله بن أبى أسر رجلا فراود الأسير جارية له وكانت الجارية قد أسلمت فامتنعت لاسلامها وأكرهها ابن أبى على ذلك رجاء أن تحمل من الأسير فيطلب فداء ولده كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء عبد الله ابن أبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من أجمل النساء تسمى معاذة فقال يا رسول الله هذه لأيتام فلان أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأعاد الكلام فنزلت الآية الكريمة . ومن ذلك يتضح أى رجل من أصناف الرجال كان ابن أبى ، وأى شىء كانت ليونته وحلمه إلا ديوثية عريقة ، وبرودا فى الطبع ، ودناءة فى الخلق . ومع ذلك كان يعجبه من نفسه أنه كان فارع الطول حسن الجسم جميل الصورة إلى حدود قل أن يشاركه فيها أحد . وكان يظن أن هذه السمات من ميزاته التى تخضع له الناس وتهيئه للزعامة والملك ، إلى أنه

فضى على ذلك قول الله تعالى « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » سورة المنافقون آية ٤ فأوصله فى مميزاته التى يعجب بها إلى درجة الخشب المسندة التى لا ينتفع بها فى شىء فتترك ملقاة على الحوائط أو الحجارة .

ابن أبى قبل تظاهره بالاسلام

ولم يبادر ابن أبى أول الأمر إلى إظهار الإسلام رياء ، ولكنه بقى على كفره مدة تقرب من سنة إذ أنه لم يظهر الإسلام إلا عقب موقعه بدر . ولم يفته أيضاً ذلك الأثر البالغ للظواهر الجديدة التى طرأت على المدينة وما تنطوى عليه من الخطر فرأى أن أسلم الطرق أن يتجاهل ذلك الخطر وأن يحاول التقليل من شأنه وشأن النبى صلى الله عليه وسلم وشأن المظاهر الجماعية للصلاة والأذان وبناء المسجد وغيرها . وكان له فى شئون ذلك أحداث أراد بها أن تؤثر فى سكان المدينة فلم تنتج أى أثر ولم تعد عليه إلا بالفشل .

ابن أبى أثناء دخول النبى المدينة

فمن ذلك أنه عند شروع النبى صلى الله عليه وسلم فى الانتقال من قباء إلى المدينة عرج على

عبد الله بن أبى يريد النزول عنده تألفاً له ، وكان جالساً محتبياً ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يريد النزول عنده ، قال اذهب إلى الذين دعوك وانزل عليهم . فقال له سعد بن عبادة يارسول لا تجد فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه ، فلما رد بالحق الذى أعطاك الله شرق ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ابن أبى أثناء مرور النبي صلى الله عليه وسلم بأطمه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف (بردعة بأداتها) وأردف خلفه أسامة بن زيد بن حارثة ، يعود سعد ابن عبادة رضى الله عنه من مرض أصابه فى بنى الحرث من الخزرج ، وذلك قبل موقعة بدر . فمر بعبد الله بن أبى وهو فى ظل أطمه مزاحم ، وحوله أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود ، وفى المسلمين عبد الله بن رواحة رضى الله عنه . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فسلم ثم جلس قليلا فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر ، وابن أبى زام لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته قال : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً

فاجلس فى بيتك ، فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغته به ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه فقال عبد الله بن رواحه بلى يا رسول الله فاغشنا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله ما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له . واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتبادرون النعال فلم يزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا . فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل
تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه
وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فدخل على سعد ابن عبادة وفى وجهه بعض الغضب ، فقال والله يارسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً ، ولكأنك سمعت شيئاً تكرهه قال ألم تسمع ما قال أبو حباب يعنى عبد الله بن أبى ثم أخبره بما قال ، فقال سعد يارسول الله ارفق به ، فو الله لقد جاءنا الله

بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه فو الله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا .

عبد الله بن أبى وابنه عبد الله

وزاد الأمر على عبد الله بن أبى عند ما آمن ابنه عبد الله وصدق فى إيمانه وصار يحاول أن يهدى أباه إلى الإسلام . وصارت تقوم بين الأب وابنه منازعات بين حين وآخر . ومن طريف ما ورد فى ذلك أن ابنه رضى الله عنه قال يوماً للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول ذرنى أسق والدى من وضوئك لعل قلبه أن يلين فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه فذهب به إلى أبيه فسقاه وقال له هل تدرى ما سقيتك قال نعم : سقيتنى بول أمك قال لا ولكن سقيتك بول النبى .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبى فى جماعة فقال لقد آذانا ابن أبى كبشه فى هذه البلاد (يعنى النبي صلى الله عليه وسلم) فسمعها ابنه عبد الله فاستأذن رسول الله أن يأتيه برأسه فقال له صلى الله عليه وسلم لا ولكن بر أباك .

اجتذاب ابن أبى للاعراب

وكان لعبد الله ابن أبى كغيره

من رؤساء القبائل أتباع يسيرون وراءه حيثما سار . وقد بدأ ينثر شباكه ليضم أعداء الدين الجديد من اليهود وغيرهم - فتحالف سراً مع يهود المدينة على رغم تباين نزعاتهم القبلية، كما جمع من استطاع استهواءه من حلفائه وأعدائه السابقين من عربان البدو الضاربين حول المدينة ، وأثبتت الأيام وجود هذه المحالفات السرية كما سيتضح فيما بعد ، وكان ابن أبي يأنس لهذه الجموع أيما إيناس ، ويثق فيها كل الثقة ، ويرى أنها كفيلة باحداث ما كان يريد إحداثه من الفتنة .

<u>محاولة اشعال الفتنه بين الأنصار</u> ومن ذلك أنه وقع فى فى بعض الأيام أن قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أتيت عبد الله بن أبي بن سلول متألفاً له ليكون ذلك سبباً لإسلامه ومن تخلف من قومه . فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون بين يديه فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال إليك عنى والله لقد آذانى نتن حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك . فغضب لعبد الله نفر من قومه فشتمه فغضب لكل واحد منهما أصحابه

فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فنزل قوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . (الحجرات ٩)

والثابت أن بعضاً من أهل المدينة قد أظهر الإسلام نفاقاً قبل أن يظهره ابن أبى ، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم بإيعازه وتحت إرشاده ليضع فى صفوف المسلمين وبين ثناياهم عيوناً وأرصاداً تعينه على تحين الفرص وتهيئة التدابير ولكن الأحداث توالت سراعا فلم تترك له أى فرصة ، وأضاعت عليه جهوده وتدابيره ، وقلبت رأساً على عقب ما ألفه وألفته العرب حينئذ من ارتكاز الأوضاع الاجتماعية على العصبية القبلية ، وهو الأمر الذى عقد عليه كل آماله والأفق الوحيد الذى لم يتسع بصره أن يمتد إلى سواه .

أثر موقعـــــة بدر

واسلام أبي أبى

قوة الكفار فى موقعه بدر كان أول ماهال ابن أبي وأحلافه ومن كانوا على شاكلته ما أحرز المسلمون من النصر فى غزوة بدر، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه من أصحابه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ليلقوا جيش قريش الذى كان يفوقهم فى العدد ثلاثة أضعاف إذ كان يتألف من خمسين وتسعمائة مقاتل معهم مائة فرس عليها مائة درع غير دروع المشاة نفروا من مكة على الصعب والذلول فى مظاهرة من الفخر، والقيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين — فطرب المنافقون وأحلافهم لذلك أيما طرب، وأيقنوا أنها النهاية لهذا الدين الجديد وأشياعه، وجعلوا يتوقعون الأخبار بهذه النهاية التى رسمها فى رؤوسهم الأمل الكاذب والتى قال الله تعالى عنها فى سورة الأنفال : « إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم

مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » (الأنفال ٤٩)

نتيجه الموقعه بالنسبه لليهود والمنافقين كانت موقعة بدر طعنة شديدة فى صدر ابن أبى وصدور أتباعه كما كانت طعنة شديدة فى صدور اليهود ، فأنى لهذا العدد الوجيز أن يكسر شوكة قريش فى أوج عزها وبالغ قدرها وكثرة عددها وهى زعيمة قبائل العرب ، ومعقل الشرف والقوة ، وإذن فقد أثبتت الموقعة أن المسلمين قوة واسعة إن يحسب لها المنهزمون من قريش حساباً ، فأولى بهذا الحساب أن يضاعفه المواطنون بالمدينة والذين لا يرون الدخول فى هذا الدين الجديد .

الارجاف الكاذب قبل عودة الجيش ومن عجيب الأمر أن تستعر الحفيظة فى قلوب المنافقين فلا يكادون يسمعون صوت رسل النبي صلى الله عليه وسلم بالنصر حتى قلبوا البشارة إرجافا بالهزيمة . وتفصيل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية وزيد ابن حارثة بشيراً لأهل السافلة — وهما من أقسام المدينة — يبشران أهلها

بما فتح الله على المسلمين . وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء.
أما كعب بن الأشرف اليهودى فصار يكذبهما ويقول ان كان
محمد قتل هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها . ولكن رجلا
من المنافقين لجأ لا إلى التكذيب كما فعل اليهودى ، ولكنه
اخترع من رأسه رواية لا أصل لها وصار يرجف بها فى المدينة
ولقى أبا لبابة رضى الله عنه وقال له : قد تفرق أصحابكم تفرقاً
لا يجتمعون معه أبدا، قد قتل محمد وغالب أصحابه ، وهذه ناقته عليها
زيد بن حارثة لا يدرى ما يقول من الرعب « قال أسامة بن زيد
فبلغنى ذلك فجئت حتى خلوت بأبى وسألته عما يقول الرجل
وقلت أحق ما تقول ؟ قال إى والله إنه لحق ما أقول يا بنى
فقويت نفسى ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت أنت المرجف
برسول الله لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك
فقال إنما هو شىء سمعته من الناس يقولونه » .

تظاهر بن أبى بالاسلام

على أن تلك الأراجيف السخيفة لم
تكن لتغير شيئاً من الحقيقة ولا أن تحجب النتائج التى أحدثتها
موقعة بدر ، وأعلنت لجميع بلاد العرب ما للمسلمين من القوة ،
فأسلم كثير ممن لم يسلم من أهل المدينة من الاوس والخزرج

واليهود ، وانكمش الاعداء واضطر عبد الله بن أبي بن سلول أن يذهب للنبي صلى الله عليه وسلم ويظهر إسلامه ، وبذلك بدأ حياة النفاق وتزعم مكامنه وأرجاسه — وبدأ فى الحال بالتقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى مسألة عمه العباس رضى الله عنه وقد كان ضمن أسرى الموقعة إذ كان مع جيش قريش ، ولم يكن قد أعلن إسلامه ، وشد المسلمون وثاقه كبقية الاسرى فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واقتيد إليه الأسرى افتدى العباس رضى الله عنه ثم أظهر إسلامه وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يلبسه قميصا وكان رجلا فارع الطول فلم يجدوا له قميصاً على طوله . فكساه عبد الله بن أبي قميصه لأن عبد الله بن أبي كان طويلا كامر . وكانت هذه أول لفتة منه يظن بها أنه يغافل عقول المسلمين ويمتلك قلوبهم . ولم يكن لها أى أثر الاعند موته إذ أتى ابنه عبد الله وكان من فضلاء الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب قميصه ليكفن أباه فيه رجاء بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه قميصه تطييباً لقلب ابنه وتأليفاً لبقية المنافقين ومكافأة لما فعله مع عمه العباس رضى الله عنه .

ابن أبى فى موقعة بنى قينقاع

خروج بنى قينقاع على العهد

كانت الأيام شديدة العجلة على ابن أبى . وأنفاس النفاق بطبيعتها حيرى مريعة قل أن تهدأ زفراتها ، فزادتها عجلة الايام سرعة واضطرابا . فما إن أظهر ابن أبى إسلامه عقب موقعة بدر ، وبينا هو يتلمس لنفسه مكمنا يتوارى إليه حتى يجمع شتات أمره ويفكر فيما هو صائر إليه ويضم إليه أشياعه ، حتى داهمه خطب فادح فيما حل بأحلافه القدماء يهود بنى قينقاع إذ خرجوا على عهدهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وحق عليهم العقاب واستحقوا الطرد من المدينة .

ووقف عبد الله بن أبى على شفير الحرج إذ كان بنو قينقاع أحلافا للخزرج من يوم بعاث وقبله . فلم يجد بدا أن يطرح بعض أستار نفاقه وفاح من قلبه النفاق فى شكل أثيم .

سبب خروجهم

ولم يكن سبب غدر هؤلاء اليهود إلا انحطاط الغرائز الانسانية وحب الفسق والمجون فى شكل طائش ، فلم يكن لابن أبى أى عذر أن يتخذ أى مسلك للدفاع

عهم . وكان من أمر هذا الغدر أن امرأة مسلمة كانت زوجة
لأحد الأنصار المقيمين بالبدو ذهبت إلى سوق بنى قينقاع ،
وكانوا صاغة يقيمون بقسم من المدينة يقال له بطحان فيما يلى
العالية ، فباعت إبلا وغنما لها ، ثم جلست إلى صائغ منهم ،
فجعل جماعة منهم يراودونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد
الصائغ إلى طرف ثوبها فخله بشوكة وهى لا تشعر ، فلما قامت
انكشفت سوءتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من
المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ،
فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون
وتواثبوا من كل جهة ، فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم
ومشى اثنان من رؤساء الخزرج وأحلاف بنى قينقاع إلى النبى
صلى الله عليه وسلم . وكان أحدهما عبادة
ابن الصامت رضى الله عنه والثانى عبد الله ابن ابى وكان لعبادة
من حلفهم مثل الذى لهم من عبد الله بن ابى فأما عبادة بن
الصامت فخلعهم الى رسول الله وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم
وقال يا رسول الله أتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وأتولى الله

ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . وأما عبد الله بن أبى فتشبث بحلفه مع اليهود وقال لكنى لا أبرأ من ولاء يهود إنى رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا الحباب أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو إليك دونه قال إذن أفعل . وقد أنزل الله تعالى فى ذلك :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على

المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون» (المائدة ٥١ـ٥٦)

تحدى اليهود ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود بنى قينقاع وقال لهم « يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة — أى ببدر — وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله تعالى إليكم، ولكنهم قد أخذتهم شدة الغرور فقالوا « يا محمد: إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » فأنزل الله تعالى:

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية فى فئتين التقتا: فئة تقاتل

في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار »

ثم إن بني قينقاع تحصنوا في حصونهم وآطامهم وكانوا يعتزون بها فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار من ١٥ شوال إلى أوائل ذى القعدة وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، واستعمل على المدينة أبا لبابة الانصارى. فقذف الله في قلوبهم الرعب. ولما ضاق بهم الأمر وعلموا أنهم أخذوا، لجئوا إلى تسليم أنفسهم والنزول على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه أن يخلى سبيلهم وأن يجلوا عن المدينة وأن لهم النساء والذرية دون الأموال والسلاح. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم قتلهم.

آل عمران ١١ - ١٣

وهنا خرج عبد الله بن ابى للدفاع عنهم والاستشفاع لهم عند النبي صلى الله عليه وسلم في أصفق أنواع الشفاعة وأجهر ضروب اللؤم وذلك أنه كلم النبي صلى الله عليه وسلم وألح عليه فقال « يا محمد أحسن في موالى » فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله من خلفه. فقال له

رسول الله ، ويحك أرسلنى ، وغضب حتى رأوا لوجهه سمرة وظللا لشدة غضبه ثم قال ، ويحك أرسلنى ، فقال ، والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، فأنهم عترتى ، وأنا امرؤ أخشى الدوائر وقد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلوهم : لعنهم الله ولعنه معهم ، وتركهم من القتل وقال له ، خذهم لا بارك الله لك فيهم ، ثم أمر أن يجلوا عن المدينة ووكل باجلائهم عبادة ابن الصامت رضى الله عنه ، وأمهلهم ثلاثة أيام . ولما انتهى اليوم الثالث سألوا عبادة أن يمهلهم أكثر من ذلك فقال ، لا ولا ساعة واحدة ، . ومع ذلك فقد حاول ابن ابى أن يعاود الاستشفاع لهم ، وكانت له صفاقة لا تمنعه من الالحاح . ولما وصل إلى مكان النبى صلى الله عليه وسلم وحاول الدخول إليه حجبه الصحابة ومنعوه من الدخول . فأراد أن يدخل عنوة ، ولكن أحدهم دفعه دفعة شديدة فاصطدم وجهه بالحائط وشج وجهه ، فانصرف مغضباً . وعند ذلك يئس بنو قينقاع كل اليأس من بقائهم بالمدينة وقالوا لا نمكث فى بلد يقتل فيه

بأبى الحباب هذا ولا ينتصر له . وتأهبوا للرحيل . وغير خاف أنهم إنما خرجوا كرهاً ويأساً من كل محاولة ، وإنما ذكروا ذلك مرضاة لعبد الله بن ابى يكيلون له النفاق قيراطاً بصاع .

ابن ابى بعد اجلاء بنى قينقاع

أعمال متفرقة

غلب ابن ابى على أمره بعد إجلاء بنى قينقاع ومرت سنة بين موقعة بدر وأحد لم يذكر التاريخ خلالها على وجه التحديد فيها نعلم أموراً محدودة عن ابن أبى ؛ ولكنه لا شك كان حثيثاً فى عقد التحالف سراً بين أعداء الإسلام وفى إنشاء حزبه أو طابوره الخامس حسب التسمية العصرية . وقد وجد من الكثير آذاناً صاغية وقلوباً أثخنتها سهام الحفيظة وسودتها سخائم الحقد والضغينة . وبدأوا يغشون مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم ويعلمون مكامن المسلمين ، ونفوسهم ملأى بالسخرية والحقد . وكانت علامات نفاقهم وسخريتهم تنكشف للمسلمين بين آن وآخر ، فلا يستطيع المسلمون أن

يقطعوا عليهم طريق آثامهم وكيدهم ، لأن التعاليم التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم تقضي أن تقبل منهم علانيتهم وأن توكل سرائرهم إلى الله . وقد كفاه الله فعلا شر تلك السرائر .

ومن ذلك أن المنافقين خرجوا ذات يوم ومعهم عبد الله ابن أبي فاستقبلهم قوم من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم . فقال ابن أبي لأصحابه « انظروا كيف ارد عنكم هؤلاء السفهاء » فأخذ بيد أبي بكر رضى الله عنه فقال « مرحباً بالصديق سيد بنى تيم ، وشيخ الإسلام ، وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله » ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه وقال « مرحباً بسيد بنى عدى الفاروق ، القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله » ثم أخذ بيد على رضى الله عنه ، فقال « مرحباً بابن عم رسول الله وختنه ، وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله » فقال له على رضى الله عنه « اتق الله يا عبد الله ولا تنافق ، فان المنافقين شر خليقة الله » فقال له عبد الله « مهلا يا أبا الحسن أتقول لى هذا والله إن إيماننا كإيمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم » ثم افترقوا فقال لأصحابه « كيف

رأيتمونى فعلت ، فأثنوا عليه خيرا ، فرجع المسلمون الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت الآية :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (البقرة ١٤ وما بعدها) .

ومهما يكن من أمر المنافقين وأعمالهم ومكائدهم ، فان الخطورة الكبرى كانت تظهر فى أوقات الحرب . فقد ذهبوا فى الإيقاع بالمسلمين كل مذهب ، وتفننوا فى تدبير أسباب الهزيمة ولهذا فقد رأيت أن أفصل أحداثهم فى المواقع الحربية ، فى كل موقعة على حدتها .

فى موقعـــة أحد

ابتلاء المؤمنين واختبارهم كانت موقعة أحد أولى المواقع التى كشفت عن المنافقين، وفضحت كثيراً من مكائدهم ونواياهم وقد ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم قوله :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء، فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .(آل عمران ١٧٩)

ولقد كان المنافقون مختلطين بين المسلمين اختلاطا شديداً فى شتى القبائل، فاقتضت حكمة الله وسنته فى خلقه أن يعلموا أكثر أمورهم بالاختبار والكسب، لا بالاطلاع على الغيب، وخفايا الأنفس، ومكنونات الصدور. ولهذا كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحق به المنافقين، وكان

يوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

ظهور المنافقين الجماعى فى أحد

لم يظهر شأن واضح جماعى للمنافقين قبل يوم أحد ، سوى ما أحدثه عبد الله بن أبى بن سلول عند إخراج يهود بنى قينقاع من المدينة ولكنه كان على كل حال ظهوراً فرديا من ابن أبى . أما موقعة أحد ، فقد اجتمع فيها مع ابن أبى عدد كبير من المنافقين ناهز الثلثمائة تميزوا إذ ذلك بانحيازهم إليه ، ثم تخلفهم معه عن القتال . وقد كانت خطوات المنافقين ومناوراتهم بزعامة ابن أبى مثالا للخديعة والمكر السيء ، وجديرة بادخال الفشل فى ذلك الوقت الحرج الذى به بدأت الموقعة ، ثم بالشماتة بالمسلمين لما أصابهم لما خالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

المشركون من قريش وعددهم فى أحد

قصد المشركون من قريش المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا ثأرهم مما حدث يوم بدر ، فنزلوا قريبا من جبل أحد يوم الأربعاء الثانى عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فأقاموا هناك يوم الخميس ،

والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وقد أتاه الخبر بوصول ذلك الجيش. وسبق ذلك أن أنه صلى الله عليه وسلم كان قد رأى في منامه أن في سيفه ثلمة، وأن بقراً له تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينه — فتأولها أن نفراً من أصحابه يقتلون، وأن رجلا من أهل بيته يصاب، وأن الدرع الحصينة هي المدينة.

استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أمام ذلك الخطر الداهم، رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه، وخاصة كبار الأنصار رؤساء الأوس والخزرج، ومن ضمنهم عبد الله بن أبي بن سلول.

والظاهر أن عبد الله بن أبي كان مشغولا في ذلك الوقت في تدبير الكيد للمسلمين وانتهاز الفرصة للقضاء عليهم، فقد واتته الفرصة أيما مواتاة، وحضرت قريش ذات السطوة والقوة في عدد كبير وخيل كثير، ومعهم النياق العوذ المطافيل، والقيان والخمور، وانه لصاحب مكر وخديعة فماذا لو ساعدهم ليشتركوا مع الخزرج والأوس في نبش التاج ليضعوه فوق هامته.

ابن أبي في الاستشارة وقد واتته الفرصة أيضاً من جهة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فقد أرسل إليه يستشيره. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم، بادىء ذي بدء، أن يتحصنوا بالمدينة، إلى أن يأتي إليها المشركون، وقال لأصحابه «امكثوا بالمدينة فان دخلها القوم، قاتلناهم ورموا فوق البيوت» وفي رواية أخرى. فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أقاموا شر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وقد كانت حجة هذا الرأي واضحة من الجهة الحربية: فقد كانت المدينة محاطة بالمباني من كل ناحية كأنها الحصن، ووافقه أكابر المهاجرين والأنصار.

ولما حضر ابن أبي، ووجد نفسه لأول مرة موضع استشارة وثقة واهتمام، ظن في نفسه أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد يغفلون عن نواياه. وأنهم قد غفروا له ما أحدثه بالأمس القريب عن يهود بني قينقاع، كما رأى أن تدبيره لا يتناقض في ظاهره مع رأي الرسول صلى الله عليه وسلم

وأكابر المهاجرين والأنصار . فالشبهة إذن بعيدة عنه فقال :
يارسول الله ، أقم بالمدينة . لا تخرج إليهم ، لقد كنا يارسول
الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ، ونجعل
معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان ، فتكون كالحصن من
كل ناحية . فاذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة ،
وقاتلناه بأسيافنا فى السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء
ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما
خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ، فدعهم يارسول الله ،
وأطعنى فى هذا الأمر ، فانى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى
وأهل الرأى منهم .

الرأى بالحرب خارج المدينة — إلى جانب هذا الرأى شباب متحمسون
ورجال أحبوا لقاء العدو ، وغالبهم ممن أسف على ما فاته يوم
بدر ، ونفوسهم تتحرق شوقا إلى قتال أهل الكفر والاستشهاد
فى سبيل الله . فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم « إنا كنا نتمنى هذا
اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم » ، وقال طائفة
من الأنصار على رأسهم سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه وهو

كبير الخروج من المؤمنين « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه بجرئة لقريش . وها هم هؤلاء قد وطئوا سعفنا ، فاذا لم نذب عن عرضنا لم يزدرع . وإن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ؟ لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافها ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا » . وقال النعمان بن مالك رضى الله تعالى عنه يرجو الرسول صلى الله عليه وسلم فى ضراعة وشوق إلى الموت فى سبيل الله « يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فو الذى نفسى بيده لأدخلنها » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وله » فقال أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولا أفر يوم الزحف فقال صلى الله عليه وسلم « صدقت » ، وكان خاتمة هذا النقاش أن قام حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه يؤيد الرأى الثانى

ويقول لابن أخيه الرسول عليه الصلاة والسلام « والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجادلهم بسيفى خارج المدينة » وهكذا انتهى الأمر بترجيح الرأى الثانى وهو الخروج لقتال المشركين من قريش ومن معهم خارج المدينة ، فوافقهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كرهه ابتداء ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

تغلب الرأى الثانى وخروج بن أبى فى كتيبة ومعه اليهود ورفض النبى لهم

لم ينجح ابن أبى فى الفوز ببغيته ولكن أول الشر يطلب آخره ، والحقد مرض لا ينفك آخذاً بخناق صاحبه ، فعمد إلى كيد آخر ، فجمع كتيبة من ثلثمائة مقاتل ممن كانوا على شاكلته فى النفاق وضم إليهم جموعا من اليهود ، وساروا مع جيش المسلمين ، حتى إذا وصلوا إلى مكان يدعى الشوط بين المدينة وأحد ، رأى النبى صلى الله عليه وسلم هذه الكتيبة ومن ضمنها اليهود فقال « ما هذا » قالوا « حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول من يهود » قال « وقد أسلموا » فقيل « لا » فقال « مروهم فليرجعوا إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك » ، وردهم

فرجع عبد الله ابن أبي محنقاً وتبعه من كانوا معه وقال عند ذاك « عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأى له ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ، ها هنا أيها الناس » وقد عز ذلك على أحد الصحابة الأجلاء وهو عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضى الله عنهما وكان من عظماء الخزرج فتبعهم يقول : « يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر من عدوهم ، وقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » ونحو هذا من القول ، ولكن عبد الله ابن أبي ابتدع له عذراً سخيفاً إذ قال « ما أرى أن يكون قتال ، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم » وهكذا أبى ومن معه إلا الانصراف ؛ فلما استعصوا عليه قال « أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله نبيه عنكم » ونزل فى ذلك قوله تعالى :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون »

غرض ابن أبى — غير خاف ما اتخذه ابن أبى من ضروب التلون والنفاق، ولم يذكر أحد صراحة، ما كان ينتويه فى نفسه ولكن الأحداث التى وقعت تدل دلالة لا يعتورها شك أن ابن أبى رأى الفرصة سانحة للقضاء على المسلمين، وذلك بأن يندس بينهم هو وتابعوه ومن على شاكلته. فلو أنهم تحصنوا بالمدينة لوجدوا عدواً كامناً بين أظهرهم، يتربص بهم الدوائر ويمكن جيش الكفار عند ما يحمى وطيس القتال من الإيقاع بالمسلمين، وليس أخطر على الجيوش من هذا الضرب من الجواسيس وهذه الفرق الخائنة. فلما فاته هذا الكيد عمد إلى تكوين فرقة من تابعيه ومن اليهود الذين تضطرم فى صدورهم نيران الحقد والغيظ بحجة الدفاع عن المدينة – وما كانت قريش تحارب غزواً لذات المدينة، وإنما كانت تحارب المسلمين وتطلب القضاء عليهم، أو تنشد على الأقل الثأر لقتلى القليب. ولكن ابن أبى حاول أن يدخل فى روع الأنصار أن الحال تدعو إلى تضافر عناصر المدينة للذود عنها من الفاتحين، وإذن فلم لا يشترك فى ذلك اليهود من سكانها، مع أنه يعلم فى نفسه حق العلم أن قريشاً لم تفكر فى فتح المدينة ولا فى معاداة

أهلها ، وأنهم إذا ما بلغوا مآربهم من الثأر لا بد راجعون إلى قومهم ، تاركين المدينة لأهلها القـدماء وعلى رأسها ابن أبى ويكون له بذلك فضل التدبير فيصل إلى تاجه العزيز المزعوم ، هكذا ظن ابن أبي وظن معه المنافقون وطمعوا فيما لا يكون وغاب عنهم ما كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات ما يفضح أمرهم ويكشف سترهم ، وإيماناً صادقاً فى نفوس المسلمين تتلاشى أمام نوره غياهب الكفر والأحقاد .

محاولات ابن أبي

ولم ييأس ابن أبي إذ فشل فى المحـاولة الأولى فعمد إلى محاولة ثانية : وذلك بأن هيأ جيشاً من ثلثمائة رقعه بعدد من أشياعه اليهود . وكان إدخال اليهود خدعة مكشوفة استتر عنها بادعاء الدفاع عن ذات المدينة من جميع أهلها . وفاته أنه عمل لا يتفق مع تعاليم الإسلام . فلما رفضه النبى صلى الله عليه وسلم عز ذلك الرفض على ابن أبى ويئس من تدبيره إذ لم يبق لديه من فرقته من يعتمد عليه فى تنفيذ خطته ، وران على قلبه الضغن ، فلم يعد أن يعود إلا بعد أن رمى بآخر سهم من سهام الفتنة فقال مقالته السابقة : وقد كادت

الفتنة أن تقع فعلا ، وذلك أن طائفتين من الأنصار وهما بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج لما رأوا انخزاله من الجيش هموا بالانصراف وكانوا جناحى العسكر ثم عصمهما الله تعالى وأنزل فيهما « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » آل عمران ١٢٢

ولنا أن نتساءل هنا كيف استطاع ابن أبى أن يستحضر أولئك اليهود ؟ ومن أى القبائل كانوا ؟ ولماذا أطاعوه والتفوا حوله ؟ وهل كانوا ينوون الدفاع عن المدينة حقا ؟ وهل كان فى عزمهم أن يكونوا عوناً للمسلمين على كفار قريش الذين جاءوا للحرب ؟

سبب استحضار اليهود

أما الطريقة التى استحضر بها ابن أبى أولئك اليهود فلا بد أن حلفاً سرياً انعقد من قبل بينه وبينهم دعت إليه المصلحة المشتركة فى معاداة المسلمين والضغن الكامن فى قلوبهم للرسول صلى الله عليه وسلم . ولا بد أن يكون هؤلاء اليهود من قبيلتى بنى النضير وبنى قريظة ، لأن يهود بنى

قينقاع كانوا قد أجلوا عن المدينة ، وعجيب أن ينضم بنو النضير وبنو قريظة إلى ابن أبى الخزرجى وقد كانوا من قبل أحلافاً للاوس ضد الخزرج ، ولكن الضغينة المشتركة أملت ضرورة هذا الحلف .

ضعف المنافقين

وقد كان فى وسع ابن أبى ألا يتعرض لهذا الخلط فى عسكره فلا ينكشف أمره كما انكشف ، ولكن الظاهر أن أشياعه على النفاق لم يكونوا على درجة من الجلد والقوة بحيث يعتمد عليهم فى الوصول إلى غرضه ، ولم يكن لديه أى ثقة فيهم ، فأدخل إليه عدداً من أحلافه اليهود ممن قويت شكيمتهم واشتدت قوتهم ، وممن لهم دراية بحركات الجيوش ، وهم وأن حالفوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى الظاهر إلا أنه لم يكن يمنعهم من نقض حلفهم ذلك إلا الخوف — ولقد نقضوه بعد ذلك وكان سبباً كافياً لإبعادهم — وهذا يعطينا فكرة واضحة عن نوع المنافقين الذين كانوا ينضمون إلى زعامة ابن أبى وكيف أنهم كانوا من الأذلاء صغار النفوس عديمى الهمة لا يعتمد عليهم فى أمر من الامور .

غرض ابن أبي في إدخال الفشل على العسكر

ولعل غرض ابن أبي من كل ذلك كان أن يصل إلى إدخال الفشل في المعسكر حتى إذا التقى الجمعان انضم هو وجيشه إلى فريق المشركين في مناورة يكون مجرد حصولها من أخطر الحركات على جيش المسلمين ثم في إضعاف قوته المعنوية . نعم لم يرد فيما رواه المؤرخون عن ذلك قولا صريحاً ولكن مقتضيات الظروف وأقوال ابن أبي وأعماله كانت كلها شواهد لا تحتمل الشك في سوء نياته وخبث تدبيره ، وإنما عصم المسلمين منها الإيمان الصادق وعدم التساهل في تعاليم الدين .

استمرار وجود بعض المنافقين في الجيش

هل تطهر جيش المسلمين تماماً من أهل النفاق ؟ وبعبارة أخرى هل خلص من الجواسيس . تدل نصوص القرآن أن الجيش لم يخل من أهل النفاق ، نجد ذلك صريحاً فيما نزل من الآيات على أثر ما منى به المسلمون لما خالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتركوا مواقفهم وانكشف الجيش ، فانتهز المشركون هذه الفرصة وقاموا بحركة التفاف نشأ عنها قتل كثير في المسلمين ، وحرموا ثمرة النصر إلى آخر ما حدث في هذه الموقعة . فلما عادت صفوف

المسلمين إلى نظامها ، أنزل الله النعاس على المسلمين أمنة منه ونعمة حتى نام أكثرهم ولم يغش هـذا النعاس المنافقين . روى البخارى عن أنس أن أبا طلحة قال « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه » وقال الزبير بن العوام رضى الله عنه « لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف وأرسل علينا النوم فما منا من أحد إلا وذقنه فى صدره ، فوالله إنى لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى , لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا » فنزل فى ذلك قوله تعالى « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون هل لنا من الامر من شىء ، قل إن الامر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الامر شىء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله

عليم بذات الصدور » آل عمران ١٥٤

الارجاف والشماتة بعد الوقعة

كان هذا من بوادر موجة الارجاف والشماتة وهى الدور الثانى الذى لعبه المنافقون عن نتائج هذه الموقعة . فقد انتهزوا فرصة ما حدث للمسلمين بأحد وأطلقوا سهاماً من القيل والقال والمفتريات الكاذبة الممزوجة بالشماتة ، والتى مع ذلك لم تحدث أثراً فى قلوب المؤمنين إلا أن يزدادوا إيماناً مع إيمانهم وإلا أن ينكشف أمر من فى قلوبهم مرض . ولعل أشد ما وصل إليه الارجاف ما أشيع فى العسكر من قتل الرسول صلى الله عليه وسلم : أشاع ذلك مشرك خبيث من قريش يدعى ابن قمئه فهب بعض المنافقين يقول « لو كان نبياً ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول » وقال جماعة منهم « ابعث لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا أماناً من أبى سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم » وانهزمت طائفة منهم حتى دخلت المدينة . ومن ظريف الأمر أن لقيتهم أم أيمن رضى الله عنها ، وكانت تسق الجرحى ، فجعلت تحثو التراب فى وجوههم وتقول لبعضهم هاك

المغزل فاغزل به وهلم سيفك ، أما المؤمنون فلم يفكر أحد منهم مثل هذا التفكير بل إنه روى أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما أنشأ يقول « يا قوم إن كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه — فثبت على القتال كما ثبت عليه غيره من أهل الصدق . وقد أنزل الله تعالى فى هذا الشأن رداً على المنافقين فقال : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » آل عمران

شماتة المنافقين

شمت المنافقون أيما شماتة بما أصاب المسلمين يوم أحد لكثرة القتلى ولقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، عم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم شمتوا أكثر من ذلك لما أصاب الرسول نفسه من الأذى والجراح حيث شج وجهه وكسرت رباعيته ودخل المغفر فى شفته . وظن المنافقون أن المسلمين قد هزموا وغلبوا على أمرهم ، وانحاز اليهم بعض اليهود وصاروا يقذفون أقبح القول . من ذلك أنهم قالوا « وما محمد إلا

طالب ملك ، ما أصيب بمثل هذا نبي قط : أصيب فى بدنه وأصيب فى أصحابه . كذلك قالوا « لو كان فى من قتل منكم عندنا ما قتل » وقد أنزل الله تعالى فى شأنهم ذلك « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم ، إذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزى ، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون » (آل عمران)

سياسة النبي صلى الله عليه وسلم فى عدم قتل المنافقين ظهر المنافقون جلياً . وميزتهم الأحداث المتعاقبة ، ولما كان يفور على ألسنتهم من نتن النفاق ، فاستأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فى قتل هؤلاء المنافقين فقال له الرسول الكريم « أليس يظهرون شهادة ألا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال عمر « بلى ولكن تعوذا من السيف فقد بان أمرهم وأبدى

الله تعالى أضغانهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « نهيت عن قتل من أظهر ذلك » وهكذا كانت سياسة الصراحة والملاينة التي قضت على هذه الشرذمة وفي هذا يخاطب الله تعالى نبيه الكريم بقوله « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القول لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » آل عمران

ابن أبي وابنه بعد أن أصيب

أما ابن أبي فقد اضطرب عليه الأمر ، وتدافعت في قلبه أشتات النزعات من غرور وكبرياء وضغن مستعر ، وحقد زادته الحوادث شدة ، وزاد في بلائه أن ابنه وفلذة كبده عبد الله كان يؤمن بدعوة الإسلام إيماناً صادقاً ، وكان والده يود أن يجد فيه عضده المتين وساعده القوى ليعتمد عليه في تنفيذ رغباته ، وتدبيره . وقد أصيب الابن في الموقعة ، وأثبتته الجراحة ، فرأى أبوه أن يوبخه لعله

يرجع عما يراه غياً ، وصار يشد عليه القول . وهنا يظهر الجمال من أدب الاسلام عن معاملة الوالدين : إذ سفه الابن رأى أبيه فى أدب جميل حيث قال له « الذى صنع الله لرسوله وللمسلمين خير »

ابن أبى يحاول استعادة مركزه فى صلاة الجمعة

وحاول ابن أبى أن يستعيد مركزه وزعامته القبلية وخاصة أمام المسلمين ، فلم يبعد كثيراً عن الصفاقة ـ وكان له مقام يقومه فى صلاة الجمعة ، أقام نفسه فيه فلم ينكره عليه أحد ، تألفاً لقلبه ، ودرءاً لشره ، وذلك بأن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى للناس عند خطبة الجمعة ، يقصد بذلك أن يعلن للناس شرفه فى قومه ورئاسته عليهم ، ويدخل الوهم به على ذوى النفوس الضعيفة حتى لا ينسوا تلك الزعامة والرئاسة . فإذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخطب الناس قام ابن أبى فقال : « أيها الناس : هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا » ثم يجلس . ولم تمنعه صفاقته أن يحاول ذلك عقب موقعة أحد ، وقام يفعل كما كان

ولكن المسلمين لم ينسوا له ما صنع وعودته بالناس والأقوال التى صدرت عنه ، فأخذوا بثيابه من نواحيه وقالوا « إجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول « والله لكأنما قلت بجرا (أمراً عظيما) أن قمت أشدد أمره ، فلقيه رجل من الأنصـــار بباب المسجد فقال له « مالك ويلك ، قال ، قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره » قال « ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ، قال « والله ما أبتغى أن يستغفر لى »

فى غزوة بنى النضير

دور المنافقين فى الغزوة

حدثت هذه الغزوة فى السنة الرابعة من الهجرة أى بعد سنة من موقعة أحد ، ولم يدخل المنافقون فيها دخولا فعليا ، ولم يحاولوا التجسس على المسلمين أو إيقاع الفتنة فى عسكرهم ، ولكنهم مثلوا مهزلة سخيفة ، إن دلت على شىء فانما تدل على اليأس وضيق الحيلة .

سبب الغزوة

سبق أن ذكرنا أن بنى النضير كانوا إحدى قبائل اليهود الثلاث بالمدينة ـ وظلوا بعد إجلاء بنى قينقاع يعيشون فى ضاحيتهم بالمدينة التى كان يقال لها زهرة يتمتعون بظل وارف من الأمن والطمأنينة فى كنف العهد الذى عقدوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو أنهم أقاموا على العهد ولكن الحفيظة والكفر دفعهم إلى محاولة الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذهب إليهم فى نفر قليل من الصحابة دون العشرة منهم أبو بكر وعمر وعلى ليتشاور معهم فى دية رجلين من بنى عامر حلفاء بنى النضير قتلهما أحد الصحابة خطأ

فلما عرض ذلك الأمر ، قالوا نعم يا أبا القاسم نعينــك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، إجلس تطعم وترجع بحاجتك ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به . فلمـا خلا بعضهم إلى بعض فطنوا لمـا كانوا فى غفلة عنه ، ورأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جوار جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال منفرداً ، فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه » فقال أحد ساداتهم ، وهو عمرو ابن جحاش ، « أنا لذلك » . فاعترضهم سلام بن مشكم ، وكان من أحبارهم ، وقال : « لا تفعلوا ، لئن فعلتم فو الله ليخبرن بمـا هممتم به ، وإنه لنقض للعهــد الذى بيننا وبينه ، يا قوم أطيعونى هـذه المرة وخالفـونى الدهر » ولـكنهم لم يسمعوا له وصعد عمرو بن جحاش ليلقى الصخرة . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم فقـام مظهراً أنه يقضى حاجته حتى لا يفطنوا له ، وحتى لا يؤذوا أصــحابه ،

ورجع مسرعاً إلى المدينة ثم عاد إليه أصحابه فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر ، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه « أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني فيها وقد هممتم بما هممتم من الغدر » - وأخبرهم بما هموا - فسكتوا ولم يقولوا حرفاً قال : « ويقول لكم قد أجلتكم عشراً فمن رؤي منكم بعد ذلك ضربت عنقه » فرأوا بادىء الامر أن يخضعوا ، ومكثوا أياماً يتجهزون واكتروا من قبيلة بني أشجع إبلا للرحيل عليها .

ما فعله ابن أبي

علم ابن أبي ومن معه من المنافقين ذلك فعز عليهم أن يتضاءل أعداء المسلمين يوماً بعد يوم ، فأرسل ابن أبي وأربعة من رهطه من بني عمرو بن الخزرج وهم وديعة بن ثابت ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس إلى بني النضير « أن اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم فانا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم » وأرسل إليهم ابن أبي « ألا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم ، فان معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من

غطفان .

أعجب هذا القول حيي بن أخطب زعيم بني النضير ، وظن قول ابن أبي صحيحاً . والواقع أن ابن أبي أرسل إلى بني قريظة لمعاونة بني النضير فرفضوا خوفا على أنفسهم من نقض العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يقطع الأمل ولم يأبه للرفض ، وأرسل إلى بني النضير برسالته آملا أن يحتال في نجدتهم ونجدة غطفان كما وهم بعض النجدة من الصعاليك الملتفين حوله من المنافقين ، وداخله الغرور في نفسه وفيمن حاول أن تتصل أسبابه بأسبابهم .

اغترار اليهود بارشاد المنافقين

ما كادت هذه الرسائل تصل إلى مسامع حيي بن أخطب حتى أعجبته وداخله الغرور ، ونسى أن الخزرج وعلى رأسها ابن أبي لم يكونوا يوماً من حلفائه ، وأن الدافع الذى دفع ابن أبي ومن معه إلى تلك الرسائل ، لم يكن عطفاً على بني النضير ولا حباً لهم ، وإنما هو الضغينة الكامنة في قلب ابن أبي للمسلمين . وكان الأقرب إلى حيي أخطب — وهو سيد قومه الحصيف ـ أن يستوثق من وعود ابن أبي قبل

أن يعلن العصيان ، ولكن حصافته وعقله تضاءلا وتلاشيا فى
نار الحفيظة والعداوة فعمى عن حسن التبصر وأعلن قومه بعزمه
على العصيان . فاعترضه سلام بن مشكم أحد أحبارهم وقال له
« منتك نفسك والله يا حيي الباطل ، فان قول ابن أبي ليس
بشيء ، وإنما يريد أن يورطك فى الملكة حتى تحارب محمداً
فيجلس فى بيته ويتركك ، ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد
القرظى سيد بنى قريظة أن تمدكم بنوا قريظة فقال له لا ينقض
رجل واحد منا العهد ، فأيس من بنى قريظة ، وأيضاً قد وعد
حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا
العهد وحصروا أنفسهم فى صياصيهم (حصونهم) وانتظروا
ابن أبي فجلس فى بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه ،
فاذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ،
ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس فى حروبهم . ولكن
حيياً أجابه « نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله » فقال له سلام

«فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا». ومع كل ما اتضح له من صحة رأى سلام بن مشكم فان حيياً أبى إلا محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلن العصيان، وتابعته على ذلك بنو النضير وقالوا له «أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك». فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنا لن نخرج من ديارنا فافعل ما بدا لك». فكبر رسول الله وقال «حاربت يهود». وكبر المسلمون وتهيئوا للحرب. وذهب النبي صلى الله عليه وسلم بالجيش إلى ضاحيتهم فحاصرهم وتم له النصر، وأخرجت بنو النضير من المدينة دون أن يجدوا نجدة من أى جهة برغم وعود ابن أبى الكاذبة، واعتزلتهم قريظة ولم تعنهم، كما اعتزلهم حلفاؤهم من غطفان.

اخلاف المنافقين لوعودهم وقد انتظرت بنو النضير طويلا نجدة ابن أبى وصار هذا وقومه يرسلون إليهم فى أثناء الحرب «أن اثبتوا وتمنعوا»، وطال الانتظار فى غير طائل،

وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيي : « أين نصر ابن أبي الذى زعمت ، فيقول « ما أصنع هى ملحمة كتبت علينا . وقد أنزل الله تعالى فى شأن هذه الغزوة سورة الحشر . وفيها عن المنافقين قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ـ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ـ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

ويستفاد من هذه الغزوة أمران : الأول أن عبد الله ابن أبي بعد أن كان عدواً ليهود بنى النضير وقريظة من وقت يوم بعاث وقبله لحلفهم مع الأوس إذا حاربوه ، انقلب فى هذه

الموقعة وصار حليفاً لهم . ومعنى هذا أن حلفا انعقد بين عبد الله ابن أبي وبين اليهود بعد إجلاء بني قينقاع . ولا بد أن ذلك الحلف قد انعقد سراً لمخالفته العهد الذي أبرمه يهود بني النضير وغيرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أول مقامه بالمدينة ألا يحاربوه ولا يظاهروا على المسلمين أحداً . ولا بد أن ذلك الحلف السري لم يكن إلا لانتهاز أي فرصة للإيقاع بالمسلمين ، ولقد حاولوا ذلك في موقعة أحد فرد الله كيدهم إلى نحورهم .

سبب وعود ابن أبي — والأمر الثاني هو البحث في عقلية ابن أبي ، فان ما فعله في غزوة بني النضير يدعونا إلى التشكك في أمر عقليته وإلا فما الذي حدا به إلى التغرير ببني النضير وهو يعلم عجزه وضعفه . ثم ما الذي منعه أن يساعدهم ، كما وعد ، بأي قدر ولو ضئيل ، والذي يقرب من الذهن أنه حاول جهده أن يجمع الأوباش من محبيه وأشياعه فخافوا على أنفسهم وذراريهم وأوكثوا تحت أقدامهم رأي ابن أبي حتى لا ينكشف أمرهم وهم يعلمون ألا قوة لهم على حرب المسلمين .

حزن المنافقين على بني النضير

وقد حزن المنافقون وعلى رأسهم ابن أبى أشد الحزن لانهزام بنى النضير والقضاء عليهم ، ولا شك أن خروجهم من المدينة كان نصراً عظيما للمسلمين ، حيث تطهرت المدينة من ركن كبير كان مركزاً للفتن والقلاقل وكان يعتمد عليه ابن أبى فى إحداث ما توسوس به نفسه من الكيد كل الاعتماد .

فى غزوة الخنـــدق

تخاذل المنـافقين

لم يستفد ابن أبى من وعوده لبنى النضير التى لم يحاول أن يف بشىء منها إلا أن ضؤل فى أعين أهـل المدينـــة وحقر فى نظر اليهود ، واستبان لهم أنه أصبح فارغا كالطبل الأجوف لا يستطيع أن يقوم بأى عمـل . لذلك هرع نفر من يهود بنى النضير وهم حيى بن أخطب وسلام بن مشكم وانضم إليهم جماعة من بنى وائل منهم هوذة بن قيس الوائلى إلى مكة واستنجدوا بقريش ومن حولها من القبـــائل كبنى سليم وبنى مرة وغـيرهم حتى جمعـوا جيشاً من عشرة آلاف مقـاتل قاموا يممون المدينة يزعمون أنهم بهذه الأحزاب يستأصلون المسلمين . فكان ذلك بلاء شديداً للمؤمنين ثبت فى قلوبهم الإيمان ، وأظهر النفاق فى قلوب المنافقين وإن كان ما أظهروه فى هذا الشأن لم يصل إلى أى عمل إيجابى وإنما قام دليلا على ما وصل إليه المنافقون من الذلة والضعة والضعف .

سبب الغزوة وبيان ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع بما اجتمع عليه أمر الأحزاب من قريش وما حولها واليهود ضرب خندقا حول المدينة . وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين وتشجيعاً لهم ، وأمرهم بالجد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا وأمرهم بالطاعة ، وخط لكل عشرة من الناس عشرة أذرع يعملون فيها . أما المؤمنون المخلصون فقد دأبوا فيه وجدوا وصاروا يتنافسون فى العمل سواء فى ذلك المهاجرون والأنصار . وأما المنافقون الذين انحشروا فى صفوف المسلمين فأبطئوا وتباطأوا فى عملهم ، وجعلوا يعتذرون بالضعف ، ومن عمل منهم يعمل عملا ضعيفاً ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذنه . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له ، فاذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة فى الخير واحتساباً له . فأنزل الله تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورســوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم

يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك
الذين يؤمنـــون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض
شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله
غفور رحيم » النور ٦٢ ثم قال فى حق المنافقين « لا تجعلوا
دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعـــلم الله
الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن
أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » النور ٦٣

المنافقون بصدد بعض المعجزات وكان من معجزات النبى صلى
الله عليه وسلم فى حفر الخندق ما روى عن البراء بن عازب
رضى الله عنه قال « عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ
فيها المعاول فاشتكينا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فجاء وأخذ
المعول من سلمان رضى الله عنه فقال باسم الله ثم ضربها فنثر
ثلثها وخرج نور أضاء ما بين لابتى المدينة فقال الله أكبر أعطيت
مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكانى ،
ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فبرقت برقة من جهة فارس

أضاءت ما بين لابتيها فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن أى مدائن كسرى وفى رواية إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى من مكانى هذا وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها فأبشروا بالنصر فسر المسلمون . ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر وخرج نور فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة » . عند ذلك قال جمع من المنافقين منهم معتب بن قشير « ألا تعجبون من محمد ، يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق (الخوف) لا تستطيعون أن تبرزوا »

نقض يهود بني قريظة للعهد

وعند ما وصلت قريش قريباً من المدينة ، كان الخندق قد تم حفره ، وكان جيش المسلمين يبلغ زهاء ثلاثة آلاف ، ولكن عدواً جديداً نشأ فى ذلك الوقت داخل المدينة ، قام على ألوية الغدر ونكث العهد : وذلك العدو هو يهود بني قريظة ، إذ أنهم نقضوا فى هذا الموقف فقط عهدهم الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخل

المدينة ، وإنما نقضوا العهد بسعي حثيث وإلحاح شديد من حيي ابن أخطب النضرى حيث حضر الى كعب ابن أسد سيد بنى قريظة أثناء وجود الأحزاب حول المدينة ، وصار يمنيه الأمانى الباطلة ، ويفتل له فى الذروة والغارب الى أن نقض العهد - وكان ذلك من أخطر العمليات إذ أصبح المسلمون بين عدوين عدو يطوق المدينة ليس بينه وبينها غير الخندق ، والآخر يتغلغل فى أحشائها ، وهو بهذا الوضع أقدر على الإيقاع بالمسلمين .

سخرية المنافقين

ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين ويثبتهم ويقول لهم حينما يرى ما بهم من كرب « أبشروا بعون الله ونصره . إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح وليهلكن كسرى وقيصر ولتنفقن أموالهما فى سبيل الله » هذا والمنافقون يسخرون من كل ذلك ملء أشداقهم ويقولون ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .

اشتداد الخوف والبلاء

وعظم البلاء على المسلمين ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم حتى ظن

المؤمنون كل ظن ، وزادت شرة المنافقين وصار معتب بن قشير يقول « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط » وحتى قال منافق آخر هو أوس بن قبظى ، من بنى حارثة بن الحارث « يا رسول الله وإن بيوتنا عورة » من العدو » وذلك على ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نخرج الى دارنا فانها خارج المدينة وقد نزل في ذلك قوله تعالى « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا : وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي : يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا » ..... والآيات التى تليها .

عدم ظهور ابن أبى فى هذه الحوادث

لم يظهر لابن أبى أى شأن فى هذه الموقعة ولم يرد له أى ذكر ، والظاهر أنه كان

فى شغل وتدبير يراقب نتيجة الاحزاب عن كثب ، وآثر ألا يظهر على مسرح الحوادث إلا اذا رأى الفرصة مواتية وتأكد من نجاحها . ولكن حصار المدينة لم يطل أكثر من بضع وعشرين ليلة أى ما يقرب من شهر ثم أرسل الله تعالى ريحاً وجنوداً عصفت بالاحزاب وشتت شملهم ، وأزاحتهم عن المدينة ، وباء بنو قريظة بما كسبوا إذ حاصرهم المسلمون واختاروا حكماً حليفهم سعد بن معاذ رضى الله عنه وكانوا يأملون أن ينقذهم كما أنقذ ابن أبى بنى قينقاع ولكنه حكم بقتلهم فقتلوا .

فى غزوة بنى المصطلق

دوران هامان المنافقين فيها — أصبح ابن أبى بعد أن يئس من تدبيره ومكايده فى الحرب ، وبعد اخراج اليهود وتضائل أعداء المسلمين ، يمثل هو وأشياعه دور التابع الذليل واكتفى من آماله ومآربه بالعمل فى الظلام والتداخل هو ومشايعوه فى زمر المسلمين .

وقد لعب المنافقون فى غزوة بنى المصطلق دورين هامين كان لهما أثر كبير وهزة شديدة كادت أن تودى الى الفتنة لولا أن الله تعالى عصم المسلمين ومن عليهم ورد كيد المنافقين الى نحورهم وفضح أكاذيبهم . أما الدور الأول فهو بذر الفتنة بين المهاجرين والانصار حتى كادوا أن يقتتلوا ومحاولة توسيع شقة الخلاف بينهم لسبب تافه عارض . والدور الثانى اتهام السيدة

عائشة المرأة الطاهرة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم إفكا وبهتاناً . وكان كلا الدورين بعد انتهاء الحرب وانتصار المسلمين .

سبب خروج المنافقين فى الغزوة خرج المنافقون فى هذه الغزوة فى كثرة لم يخرجوا قط فى مثلها ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى وزيد بن الصلت ، لا رغبة فى الجهاد ، ولا طمعاً فى إدخال الفشل على جيش المسلمين ، ولكنهم كانوا يوقنون بنصر المسلمين ولم تكن المسافة بعيدة بين المدينة وماء المريسيع حيث كانت جموع بنى المصطلق ، فرأوا أن يخرجوا ليصيبوا من الغنائم وعرض الدنيا ، وليتظاهروا بمظهر المؤمنين المخلصين . وقد صدق ظنهم ، وأنعم الله على المؤمنين بالنصر . وفى أثناء العودة حدث حادث تافه فاذا بعبد الله بن أبى والمنافقين يظهرون بمظهرهم الحقيق ، فاندفعت ألسنتهم تخرج من أفواههم خبث النفاق والفتنة .

الدور الاول وكان من أمر ذلك أن أجيرين للمسلمين

اختصما على الماء أحدهما من المهاجرين والثانى من الأنصار :
الاول أجير لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من بنى غفار يقال
له (جهجاه بن مسعود) ، والثانى سنان بن وبر الجهنى حليف
بنى عوف من الخزرج . وقد ازدحم الاثنان على الماء فاقتتلا
فضرب الأول الثانى فشجه وسال منه الدم ، فصـــاح الثانى
يا للأنصار يا للخزرج وصاح الاول يا لكنانة يا لقريش ،
فأقبل جمع من الجيش وشهروا السلاح ، وكادت أن تكون
فتنة عظيمة ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصياح فخرج
وسأل « ما بال دعوى الجاهلية » فأخبر الخبر أن رجـــلا من
المهاجرين ضرب رجلا من الانصار فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « دعوها فانها منتنة » (أى دعوى الجاهلية وهى
قولهم يا لفلان) ثم انحسم النزاع ، وترك المضروب حقه ،
وسكنت الفتنة ، وانطفأت ثائرة الحرب .

محاولة توسيع الخلاف لسبب تافه

لم يترك عبد الله بن أبى
هذا الحادث التافه أن يمر تافهاً كما يجب ، ولكنه أثار الحفيظة
الكامنة فى قلبه ، والنفاق الغائر فى نفسه ، فما رأى المهاجرين

والانصار يتواثبون ويتدافعون ، ويرفع بعضهم لبعض السلاح حتى انفلتت منه روابط الرياء ، وجعل يحاول استغلال ذلك التدافع أوقح استغلال وأشنعه ، ليؤلب المهاجرين والانصار بعضهم على بعض ، لعل أن يكون فى ذلك مفتاح لافساد الألفة والأخوة بينهم . فما أن علم بذلك الخلاف وعنـــده رهط من قومه حتى غضب وقال « والله ما رأيت كاليوم مذلة ، أو قد فعلوها ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه (لقب من أسلم من المهاجرين لقبهم به المشركون لأنهم كانوا يلتحفون بالأزر الغلاظ) إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت ، والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ثم أقبل على من حضر وقال « هذا مافعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيدكم لتحولوا الى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا

عليهم حتى ينفضوا من عند محمد » .

لغة خبيثة مشحونة بفتيل الفتنة كان من شأنها مع النعرة القبلية الجاهلية أن يتضرم لهيبها سعيراً فاتكا جارفاً ، وفاته أن الايمان قضى على تلك النعرة ، وأرجع الأمور الى طبائعها ، وردها الى نصابها ولذلك لم يحدث ما أراد ابن أبي من الفتنة ، وفاض نور النبوة وهدى الإيمان ، فاذا الفريقان مؤتلفان .

زيد بن أرقم يروى أقوال ابن أبى

كان من بين القوم الذين أطاق ابن أبي لسانه أمامهم غلام صغير هو زيد بن أرقم رضى الله عنه لم يحسب له القوم حساباً لصغر سنه . وكان الغلام صادق الايمان فلم يعجبه قول ابن أبي ، فذهب الى مجلس رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده بعض المهاجرين والانصار منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فذكر الغلام المقالة لعمر فنقلها عمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فدعاه الرسول وسأله الحديث فأعاده عليه ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وتغير

وجهه ، ولم يرد أن يؤكد الخبر منعاً للفتنة ، وقال لزيد : ياغلام لعلك غضبت عليه قال والله يا رسول الله لقد سمعته منه قال لعله أخطأ سمعك . وعند ذلك دلف اليه بعض الانصار وجعلوا يعنفونه ويلومونه بقولهم اليه عمدت الى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل .

خرج الغلام وقد أصابه من الهم ما شد عليه ، وجلس فى خبائه منكسراً حزيناً ، وجاء اليه عمه ليعنفه وقال له ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ومقتك . فقال زيد والله لقد سمعت ما قال ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وانى أرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثى .

اعتذار ابن أبى وحلفه

وذهب بعض الانصار الذين سمعوا قول النبى صلى الله عليه وسلم ورده على الغلام الى عبد الله ابن أبى وقالوا له يا أبا الحباب إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فليستغفر لك ، ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك ، وإن كنت لم تقله فائت رسول الله

صلى الله عليه وسلم فاعتذر له واحلف له ما قلته فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً . ثم مشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أرسل اليه ، فلما حضر عنده قال له : أنت صاحب الكلام الذى بلغنى عنك فقال والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت من ذلك شيئا وإن زيداً لكاذب . فقال بعض من حضر من الانصار يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل وقال البعض الآخر يارسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام .

فشو الحديث

ولم ينته الحادث عند هذا الحد فقد شاعت مقالة ابن أبى الخبيثة وتناقلها الناس ، ولم يكن لهم حديث غيره طول اليوم . والظاهر أنه سبب للنبي صلى الله عليه وسلم غير قليل من الألم ، فهو يعلم حقيقة ابن أبى وأن إسلامه لم يكن إلا نفاقاً وأنه زعيم المنافقين . ولم يشأ النبى عليه السلام أن يغير السياسة التى اتخذها معهم . وقد حضر اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد قليل فوجده فى فىء شجرة عنده غليم أسود يغمز ظهره (أى يكبسه) فقال له يارسول الله كأنك تشتكى

ظهرك ، فقال « تقحمت بى الناقة ، (أى ألقتنى) الليلة ، فقال له عمر رضى الله عنه « يا رسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن أبى ، أو إن كرهت أن يقتله مهاجرى فأمر به أنصارياً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترعد له إذن أنف كثيرة بيثرب ، ثم كيف اذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل ، وكان ذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها لشدة الحر ، ولكنه أراد أن يشغل الناس بالرحيل والسفر عن كثرة القيل والقال .

عبد الله بن عبد الله ابن أبى يعرض على النبى أن يقتل أباه

وقد فشا أيضاً ذلك الحديث ، فلما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى مقالة عمر عن قتل أبيه جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له « يا رسول الله قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى (يعنى والده) فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فرنى أن أحمل لك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار ،

فطمأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى بين أظهرنا .

الامر بالرحيل فى ساعة منكرة

وقد ارتحل الناس وساروا امتثالا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند مسيرهم أتاه أسيد ابن حضير سيد الأوس وحياه بتحية النبوة قائلا « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ثم قال له « يا نبي الله لقد رحلت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها » فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوما بلغك ما قال صاحبكم » فقال « أى صاحب يا رسول الله » قال « عبد الله بن أبى بن سلول » قال « وما قال » قال « زعم أنه إن رجع الى المدينة أخرج الأعز منها الأذل » قال « فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز » ثم قال يا رسول الله إرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه ليرى أنك استلبته ملكا .

السير الحثيث

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم سيراً حثيثاً وصار يضرب راحلته بالسوط فى مراقها (ما رق من جلده

أسفل البطن) وساروا يومهم ذلك حتى أمسوا وليلتهم حتى
أصبحوا وصدر ذلك اليوم الثانى حتى آذتهم الشمس ثم نزل
بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياماً —
كل ذلك ليشتغل الناس بالسفر وشدته عن حديث
ابن أبى .

نزول القرآن سورة المنافقين

وعند اقترابهم من المدينة
أنزل الله تعالى سورة المنافقين ، وفيها تكذيب صريح لعبد الله
ابن أبى وتصديق لزيد بن أرقم — قال زيد رضى الله عنه
« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذه البرحاء ويعرق
جبينه الشريف وتثقل يدا راحلته فقلت إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم يوحى اليه ، ورجوت أن ينزل الله تصديق . فلما سرى
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بأذنى ، وأنا على راحلتى
يرفعها الى السماء حتى ارتفعت عن مقعدى وهو يقول وعت أذنك
يا غلام وصدق الله حديثك وكذب المنافقين .

وقد بدأت السورة الكريمة بكشف بعض أفعال المنافقين
من الكذب والجرأة على اليمين الكاذبة وغرورهم بأجسامهم

وأشكالهم وهيئاتهم ، ثم أعادت طرفاً من أقوال ابن أبى مع الرد عليها فى سخرية لاذعة وحكم قاطع حاسم . يقول الله عز وجل « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » الى أن قال « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

معاتبة قوم ابن أبى له وتعنيفه

ولما نزلت السورة صار قوم عبد الله بن أبى يعاتبونه ويعنفونه ، ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغض قومه له ومعاتبتهم إياه ، قال لعمر « كيف ترى يا عمر إنى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو

أمرتنا اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر رضى الله عنه « قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى ، ثم إن أصحاب ابن أبى من قومه من المسلمين شددوا عليه وقالوا له اذهب الى رسول الله يستغفر لك فلوى رأسه وقال « أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد ، وفى ذلك قال الله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين »

عبد الله بن عبد الله ابن أبى يعترض أباه

ولما وصل الجيش الى وادى العقيق قريباً من المدينة تقدم عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطىء على يد راحلته ، فقال له أبوه « ويلك ما تريد يا لكع ، فقال « والله لا تدخلها (يعنى المدينة) حتى تقر أنك الذليل وان رسول الله هو العزيز ، وحتى يأذن لك رسول الله لتعلم الأعز

من الأذل : أنت أو رسول الله ، فقال له أبوه ، أنت من بين الناس ، قال ، أنا من بين الناس ، فلم يجد مناصاً إلا أن يخضع ويقر بمذلته وصار يقول ، لأنا أذل من الصبيـان ، لأنا أذل من النساء ، وظل محبوساً عن التقدم والمسير حتى وصل الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى ابنه أن خل عنه .

* * *

الحادث الثانى حديث الافك انتهينا من الحادث الاول ، أما الحادث الثانى فينحصر فى تلفيق ابن أبى حديث الافك ، وهو الكذب على السيدة عائشة الصديقة المبرأة الطاهرة رضى الله عنها واتهامها بالزنا ، وقد أدار ابن أبى هذا الحديث وتولى إشاعته وأظهر فى ذلك من المهارة الطائشة الدنيئة ما أحدث فتنة كبيرة وسبب للنبى صلى الله عليه وسلم وزوجه المطهرة غير قليل من الأذى .

سبب الحديث　كانت السيدة عائشة رضى الله عنها مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المصطلق . ولما دنوا من المدينة فى أوبتهم اليها من الغزوة أذن ليلة بالرحيل فذهبت بعيداً عن الجيش لقضاء حاجتها فلما عادت افتقدت عقداً لها فذهبت للبحث عنه حتى اذا عادت وجدت الركب قد سار وأنهم حملوا هودجها على بعيرها الذى كانت تركبه وهم يحسبون أنها فيه لخفة وزنها ، فظلت فى مكانها وذهبت فى النوم فوجدها أحد الصحابة واسمه صفوان ابن معطل السلمى وكان متأخراً عن الجيش فظل يسترجع (بقول إنا لله وإنا إليه راجعون) الى أن استيقظت فأناخ لها بعيره وركبت حتى اذا كانوا عند دخول المدينة مرت على جماعة من المنافقين يتباعدون من الناس وفيهم ابن أبى فلما رآها قال « من هذه » قالوا « عائشة » قال « ومن هذا » قالوا «صفوان» فقال « فجر بها ورب الكعبة ، مانجا منها ولانجت منه »؛ وصار يقول « امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت . وذهبت به العداوة الكامنة فى قلبه أن أشاع ذلك فى المدينة بعد دخولهم ؛ وصار يدفع بعض أعدائه فيتحدث عنده بحديث الافك فيقره

ويسمعه ويستوشيه ويستخرجه بالبحث عنه لتكثر إشاعته ، وأدار ذلك بمهارة فائقة ملؤها اللؤم ، حتى استدرج اليه بعض المستضعفين وحتى انزلق الى روايته بعض المسلمين مثل مسطح ابن اثاثة وحمنة بنت جحش . وظلت الاشاعة تدور من لسان الى لسان حتى صارت مدار الحديث بالمدينة . وزاد الامر أن مرضت السيدة عائشة بالحمى مرضا شديداً عقب عودتها الى المدينة أقعدها أكثر من شهر وهى لا تعلم شيئاً من الحديث الذى يدور حولها حتى برأها الله تعالى بما أنزل من القرآن عن هذا الافك .

ابن أبى يتولى الحديث عقب الحادث الاول ومن أروع الأمر أن يحدث ابن أبى هذه الفتنة عقب فضيحته فى الحادث الأول . فما زجره مانزل فيه من القرآن ولا تعنيف قومه له ولا ثبوت الكذب عليه . ولعله استفاد من حجز ابنه له من دخول المدينة حتى أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأخر بذلك عن الركب فتمكن من رؤية السيدة عائشة رضى الله عنها ، فوجد فى ذلك فرصة تتفق مع طبيعته التى لم تمنعه من قبل ان يشتغل

قواداً للبغايا ، فتلقفها واستغلها وأشعلها فتنة طاغية لعلها كانت من أشد ما قام به من الفتن . وقد أدخلت هـــذه الفتنة آلاما كثيرة للنبى صلى الله عليه وسلم وزوجه . وقد قصت السيدة عائشة رضى الله عنها هذه القصة بأسلوبها المحكم وبما صاحبها من ظروف ، فى تصوير شديد الدقة والروعة . ولذلك نوردها كما وردت فى كتب السيرة .

قصة الافك على لسان السيدة عائشة رضى الله عنها

قالت عائشة رضى عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعـــد ما أنزل الحجاب فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه ، حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وجه قافلا حتى اذا دنونا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيـل ، فقمت لبعض حاجتى حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى ، فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع وانسل من عنق ولا أدرى ، فرجعت فلمست عقدى فى المحـل الذى قضيت فيه حاجتى ، وحبسنى التماسه حتى وجدته ، وجاء القوم خلافى ، الذين كانوا يرحلون لى

البعير ، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذى كنت أركب وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع فشدوه على البعير ولم يشكوا أنى فيه ، وكنت جارية حديثة السن ، وكان النساء إذ ذاك خفافا إنما يأكلن العلق ، لم يهجهن اللحم فيثقلن ، وانطلقوا بالبعير فرجعت الى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى ، فأنى لمضطجعة وقد غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى ، فأقبل ووقف على ، فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت باسترجاعه ، فخمرت وجهى بجلبابى ، قال ما خلفك يرحمك الله ، فما كلمته ، ثم أناخ ناقته فوطىء على يدها فركبتها ، واستأخر عنى ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش فى نحر الظهيرة وهم نزول ، فلما نزلنا هلك من هلك بقول البهتان والافتراء ، والذى تولى كبره عبدالله ابن أبى بن سلول ، وكان أول من أشاع ذلك فارتعج (اضطرب وتحرك) العسكر ووالله ماأعلم بشىء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة

فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغنى من ذلك شىء والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك . وانتهى الحديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبوى ، لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيرا ، إلا أنه كان يريبنى فى وجعى أنى لا أجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى فيه حين أشتكى ، وكنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى ، فلم يفعل بى ذلك فى شكواى تلك ، إنما كان يدخل على فيسلم وعندى أمى تمرضنى ثم يقول كيف تيكم لا يزيد على ذلك ثم ينصرف ، فذلك الذى يريبنى ، حتى خرجت بعد ما نقهت ، فخرجت معى أم مسطح (اسمها سلمى بنت رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه) قبل المناصع وكانت متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا الى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب فى البرية ، فانطلقت أنا وأم مسطح ، فلما فرغنا من شأننا وأقبلنا عثرت أم مسطح فى مرطها ووقع السطل فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت

أتسبين رجلا شهد بدراً ، قالت يا هنتاه ! أو لم تسمعى ما قال ، قلت وما قال . فأخبرتنى بقول أهل الأفك ، فازددت مرضا على مرضى ، وأخذتنى حمى نافضة ، فلما رجعت إلى بيتى مكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعد أن سلم ، كيف تيكم ، فقلت له يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى ، وأنا أريد أن تثبت الخبر من قبل أبوى (لأن أمها كانت فارقتها لما فقهت من المرض وذهبت إلى بيتها) فقال لى لاعليك ، فجئت أبوى وأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق يقرأ فقالت أمى . ما جاء بك . فقلت لأمى يغفر الله لك تحدث النـاس بما تحدثوا لاتذكرين لى من ذلك شيئا ، قالت أى بنية خفضى عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها ، فقلت سبحان الله ، ولقد تحدث الناس بهذا ، قالت نعم. قلت ورسول الله ؛ قالت نعم، فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتى فنزل فقال لأمى ماشأنها فقالت بلغها الذى ذكر من شأنها ، ففاضت عيناه . فبكيت تلك الليلة

حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحلت بنوم فى هذه الليلة كذلك. ولما أصبحت أصبح أبواى عندى يظنان أن البكاء فالق كبدى. فبينما هما جالسان عندى وأنا ابكى وهما يبكيان وأهل الدار يبكون فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى، فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل، وقد لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً لا يوحى اليه فى شأنى فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال. أما بعد ياعائشة، إنه قد كان مابلغك من قول الناس فان كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت قارفت سوءا مما يقول الناس فاستغفرى الله وتوبى اليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ماأحس منه بقطرة وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلما، فقلت لأبى أجب رسول الله عنى، قال فوالله ما أدرى ما أقول لرسول الله. فقلت لأمى أجيبى رسول الله عنى، فقالت ماأدرى ما أقول لرسول الله. فقلت وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ

من القرآن كثيراً . لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم فلئن قلت لكم إنى بريئة — والله يعلم أنى بريئة — لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت بأمر — والله يعلم أنى منه بريئة — لتصدقنى ، فوالله لا أجد لى ولكم إلا قول أبى يوسف عليهما السلام — والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه — إذ يقول : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، ثم تحولت فاضطجعت على فراشى . فوالله ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحى ، وأنا أعلم أنى بريئة وأن الله مبرئى ، ولكن والله ما ظننت ان الله تعالى ينزل فى شأنى وحياً يتلى ، وايم الله لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن ينزل الله فيه قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى النوم يبرئنى الله بها . وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه ، ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على ، والله ماقيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله ، فيقال لنا فى الاسلام، وأقبل على عائشة مغضبا — فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يأخذه عند نزول الوحى من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر

منه العرق من الجمان ، فسجى بثوبه ، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه . قالت عائشة رضي الله عنها : فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت لأنى عرفت أنى بريئة وأن الله تعالى غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ماقال الناس ، فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سرى عنه وهو يضحك ، وإنه ليتحدر منه العرق كالجمان ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم فكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة أما إن الله قد برأك فقالت أمى قومى اليه . فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمد إلا الله . وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم درعى فقلت بيده هكذا أى أدفع يده عن درعى ، فأخذ أبو بكر النعل ليعلونى به ، فمنعته فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أقسمت عليك لا تفعل . وأنزل الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى

كبره منهم له عذاب عظيم • لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين — لولا جاءوا عليه بأربعه شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون — ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم — إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم - ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين - ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم »

الفترة بين حديث الافك وآيات البراءة

وظاهر أن الفترة التى مرت بين أقوال أصحاب الافك وآيات البراءة كانت فترة شديدة على المسلمين ، اندلعت فيها ألسنة ملتظية من نيران الفتنة وآذت النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقد استشار بعض أصحابه ، وحتى

استعذر من عبد الله بن أبى ، فلم تؤد الاستشارة إلى نتيجة ، وكاد الاستعذار أن يتغلب إلى إثارة الفتنة والخلاف بين الأوس والخزرج .

الاستشارة

فأما استشارته صلى الله عليه وسلم فكان من أمرها أنه استشار أولا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال له عمر « من زوجها لك يا رسول الله » قال « الله تعالى » قال « أفتظن أن الله قد دلس عليك فيها ، سبحانك هذا بهتان عظيم » ثم دعا على بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضوان الله عليهما ليستأمرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة فقال « أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيرا وهذا الكذب والباطل » وأما على فانه قال « يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وأن تسأل الجارية . تصدقك » يعنى بذلك بريرة رضى الله عنها لأنها كانت تخدم عائشة فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ليسألها . قالت عائشة فقام اليها على بن أبى طالب فضربها ضرباً شديداً ويقول أصدقى رسول الله ، وسألها النبى صلى الله عليه وسلم . أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك ، قالت بريرة « والذى بعثك بالحق

ما رأيت عليها أمراً أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق ذلك يسأل زينب بنت جحش أم المؤمنين ، وهى التى كانت تسامى عائشة فى المنزلة والمحبة والجمال ، عن أمرها : قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم «ماذا علمت أو رأيت » فتقول « يا رسول الله : أحمى سمعى وبصرى ، ما علمت إلا خيرا . والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها ، وما أقول إلا الحق » .

الاستعذار

وأما الاستعذار ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طال أمر الاتهام وقبل أن تنزل آيات البراءة ، قام فى الناس فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس : من يعذرنى أن ينصفنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فو الله ما علمت على أهلى إلا خيرا . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، ولا يدخل بيتا من بيوتى إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى ، يقولون عليه غير الحق . فقام سيد الأوس سعد بن معاذ وقال « يا رسول الله إن كان من الأوس

ضربت عنقه ، وإن كان من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم » . فقام سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وقد أجهلته الحمية ، فقال له « كذبت ، لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، أما والله ماقلت هذه المقالة إلا أنك عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا » فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : « كذبت لعمر الله : لنقتله وأنفك راغم ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين » فثار الحيان الأوس والخزرج وتساوروا (قام بعضهم الى بعض) حتى هموا أن يقتتلوا ، لانه كان بين الحيين قبل الاسلام ما هو معروف من المشاحنة والمحاربة والمنافسة ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا .

غرض ابن أبي من الحديث — ذكر من انزلق اليه

انتهى الحادث الثانى وهو قصة الافك ، ولعلها أروع ما قام به ابن أبى من الفتن ، لم يرع فيها حرمة ولا خلقاً ، وأخذ من فنون التشفيع والقذف أحطها وأذلها — وقد أراد أن يلوث عرض النبى

صلى الله عليه وسلم بهذه الشنعة الخبيثة المجرمة والناس بطبائعهم يميلون الى تصديق أمثال هذا القذف ولا يأبهون لتحقيقه ، وإن أرادوا تحقيقه عجزوا ، فتترك المسألة بين الاستفهام والشك مريضة تدخل الى القلوب الضعيفة ، وقد أراد ابن أبى ذلك وعناه عناية واضحة - ومع كل لم ينزلق إلى الافك إلا عدد ضئيل جداً ، وبقى المؤمنون على ثباتهم موقنين بالكذب هازئين بتلك المفتريات - هذه امرأة ابى أيوب خالد بن زيد رضى الله عنهما تسأل زوجها أبا أيوب « ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة » ، قال « بلى وذلك الكذب : أكنت يا أم أيوب فاعلة » ، قالت « لا والله ما كنت لأفعله » ، قال « فعائشة والله خير منك » .

ومع ذلك لم يعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى على فعلته ، وتركه يأكل الحقد والضغن والكفر قلبه وقلوب المؤمنين تفر منه ، والخزى والخذلان يحوطانه ، ونور الله إلى تمامه ، والله متم نوره .

بعد غزوة بنى المصطلق الى غزوة تبوك

ضعف المنافقين

توالت الاحداث والغزوات بعد غزوة بنى المصطلق ، وكان النصر فيها للمسلمين . وانكمش المنافقون وعلى رأسهم ابن أبى الا ما كان فى من سيرهم الاخرى فى حياة السلم ، والا أحداث فردية تافهة أثبتوا فيها روح الضعف والتبعية بشكل كان يتضاعف كلما مرت الايام .ومن ذلك بعض حوادث صغيرة حدثت يوم الحديبية وفى غزوة خيبر .

فى صلح الحديبية

أما فى صلح الحديبية فقد ورد أن عبد الله ابن أبى والجد بن قيس كانا من الذين حضروا من المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين الحج فأزمعت قريش أن تمنعهم من دخول مكة وتجمعت للحرب . ثم تصالحوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعود عامه ذلك الى المدينة على أن يحضر فى عامه القابل — وفى أثناء وجود النبى صلى الله

عليه وسلم بالحديبية وقبل التصالح بعثت قريش الى عبد الله بن أبى إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل فقال له ابنه عبد الله « يا أبت أذكرك الله ألا تفضحنا فى كل موطن ؛ تطوف ولم يطف رسول الله؟ » فأبى حينئذ وقال لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

ولنا أن نتساءل عن السبب الذى حدا بقريش أن ترسل اليه هذه الرسالة إلا أن تكون جامعة الكفر قد لفقت بين قلوبهم وأن المشركين من قريش كانوا يعجبون بأعمال النفاق التى كان يدبرها . ولكنه لم يجب دعوة قريش لا حباً للمسلمين ولكن روح التبعية كانت قد أخذت من نفسه ولم تكن له فائدة فى الخروج على قومه فى غير بلاده ، ولذلك لم يمتنع عن قول السوء عند ما وجد الفرصة . من ذلك أنه حدث أن أصابهم مطر فى الحديبية لم يبلغ أسفل نعالهم ليلا فقال ابن أبى « هذا نوء الخريف ، مطرنا بالشعرى » فنادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن صلوا فى رحالكم » وقال بعد أن صلى بهم « أتدرون ما قال ربكم » قالوا « الله ورسوله أعلم » قال « قال

الله عز وجل : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر : فأما من قال مطرنا برحمة من الله وفضله فهو مؤمن بالله وكافر بالكواكب. ومن قال مطرنا بنوء كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بى ، (*)

الشكوى من قلة الماء وما تم فى ذلك

وشكا المسلمون قلة الماء فى الحديبية ، وهى إذ ذاك فلاة قاحلة ليس بها إلا بئر قد جف ماؤها ونضب إلا قليل من الماء يتربضه الناس تربضاً ، ثم لم يلبث حتى نزحوه . فلما بلغ الشكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحر شديداً ، دعا ناجية بن الاعجم ودفع اليه سهما من كنانته ودعا بدلو من ماء البئر فتوضأ ومضمض ثم مج الماء فى الدلو ، ثم قال له انزل بالدلو فى البئر وأثر ماءها بالسهم ، ففعل وفار الماء كما يفور القدر حتى طمت واستوت بشفيرها ،

(*) هذا عند الشافعية مكروه لا حرام لأن المراد بالإيمان شكر نعمة الله حيث نسبها الى الله والكفر كفران النعمة حيث نسبها لغيره . فان اعتقد أن النجم هو الفاعل كان الكفر فيه على حقيقته والأول انما نهى عنه لأنه كان من أمر الجاهلية . والا فهذا التركيب لايقتضى أن يكون نوء كذا فاعلا ومن ثم لو قال مطرنا فى نوء كذا وكذا أى فى وقت نوء كذا لم يكره .

وصار المسلمون يغترفون من جوانبها حتى نهلوا عن آخرهم — وقد كان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم — وكان على البئر نفر من المنافقين منهم عبد الله بن أبى بن سلول فقال له أوس ابن خولى رضى الله عنه « ويحك يا أبا الحباب ، ما آن لك أن تبصر ما أنت عليه ، أبعد هذا شيء ؟ » فقال « إنى رأيت مثل هذا » فقال له أوس بن خولى رضى الله عنه « قبحك الله وقبح رأيك » ثم أقبل عبد الله بن أبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله « يا أبا الحباب انى رأيت مثل ما رأيت اليوم » قال « ما رأيت مثله قط » قال « فلم قلت ما قلت » فقال « يا رسول الله استغفر لى » وقال ابنه عبد الله « يا رسول الله استغفر له »

الجد بن قيس فى الحديبية

وقد كان ضمن المنافقين فى الحديبية الجد بن قيس وقد روى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أنه قال « بينما نحن جلوس قائلون إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطاب « البيعة البيعة نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله فسرنا الى رسول الله وهو تحت شجرة فبايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار وأنه إما الفتح

وإما الشهادة ولم يتخلف منا أحد إلا الجد بن قيس ، قال لكأنى أنظر اليه لاصقاً بأبط ناقته يستتر بها من الناس ، وكان يرمى بالنفاق وسيأتى أخبار له متصلة فى غزوة تبوك .

المنافقون فى خيبر

وأما دور المنافقين فى غزوة خيبر ، فلم يزد على حادث تافه هو أن عبد الله بن أبى لما علم عزم النبى صلى الله عليه وسلم على غزو خيبر أرسل الى يهودها يخبرهم أن محمداً سائر اليكم فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم ، واخرجوا الى قتاله ، ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير ، وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل ، فكانوا يخرجون كل يوم ويصطفون صفوفا ويقولون « محمد يغزونا هيهات هيهات » فلما كانت الليلة التى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحتها بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ، ولم يصح لهم ذلك حتى طلعت الشمس ، فقاموا من نومهم وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم وغدوا الى أعمالهم ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل (القفف) فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوا هاربين الى آخر ما تم فى حربهم .

عدم تأثر المنافقين بفتوح المسلمين

ويتضح من هذا أن ابن أبى أتعب نفسه فى غير طائل ومع ذلك فلم يكن ليتنبه هو وأشياعه المنافقون الى الوقائع المادية وفتوح المسلمين الناجحة فقد فتح الله للمسلمين مكة ودانت للنبى صلى الله عليه وسلم قريش وثقيف وهوازن بعد عداوتها وشدتها وغلظتها ، فلما وعد أمته ملك فارس والروم عاد المنافقون الى التهكم والسخرية وشاركتهم اليهود وصاروا يقولون « هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، وهم أعز وأمنع من ذلك ، فنزل فى ذلك قول الله تعالى « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » .

فى غزوة تبـــوك

مميزات الغزوة – وسورة براءة امتازت غزوة تبوك بأنها قضت القضاء الأخير على المنافقين وفضحت أعمالهم وأكاذيبهم. وكشفت عن أسرارهم، وأوقفتهم مواقف الخزى والخذلان.

كذلك امتازت بما نزل عنها من القرآن، ولقد نزل فى ذلك سورة براءة وهى على طولها – حيث تقع فى جزء من ثلاثين جزءاً من القرآن – قد نزلت إلا آيات قليلة فى شأن المنافقين فى هذه الغزوة، ولذلك سميت بالسورة الفاضحة والمبعثرة والحفارة

قال سعـــيد بن جبير: سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن سورة براءة قال تلك الفاضحة، ما زال ينزل ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً (*).

(*) قال الزمخشرى فى الكشاف أن سورة براءة لها عدة أسماء براءة والتوبه والمقشقشة والمبعثرة والمشردة والمخزيه والفاضحه والمثيرة والحافـــرة والمنكلة والمدمدمة وسورة العذاب. وقال ان السبب فى ذلك هو أن فيهـا التوبة على المؤمنين وأنها تقشقش من النفاق أى تبرىء منه وتبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنهـا وتفضحهم وتنكل بهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم.

المنافقون فى سورة براءة

ويحسن لمن يريد أن يتفهم أمر المنافقين بصفة عامة ، وفى هذه الغزوة بصفة خاصة ، أن يمعن فى تلاوة هذه السورة ويكرر تلاوتها ، ففيها كنوز لا حصر لها من السياسة والحزم ودربة الحكم وكرم المعاملة ، وفيها كشف واسع لطباع اللؤم والخداع والحقد والحسد والصفاقة ، وفيها تجد ووعيد وقوة كأروع ما يكون التحدى وأشد ما يكون الوعيد والقوة ، وفيها سخرية لاذعة بالنفاق وأهله وشد لأزر المسلمين ، وفيها عتاب وتوبة لقليل من المؤمنين آثروا الدعة ولازموا الصدق ، وفيها غير ذلك معين لا ينضب من بدائع الاجتماع وروحه وروائع النفس الانسانية . ولعل ذلك راجع الى أن هذه الغزوة كانت آخر غزوات الرسول الكريم وقبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فاقتضت حكمة البارىء جل شأنه أن تكون مرجعاً ومجمعاً لما يحتاج اليه الناس فى هذه الشئون .

الأمر بالغزوة

فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة أمر

النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه للتهيء لغزو الروم ، وكان ذلك الوقت صائفاً شديد الحر ، فكان عسيراً على النفس أن تترك مقامها ودعتها ، وحين طاب لها الظل والثمر ، لتشخص للصحراء القاحلة والجدب المعدم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصده إلا ما كان من أمر هذه الغزوة فانه بينها للناس لبعد المشقة وشدة الزمان وكثرة العدو حتى يتأهبوا لذلك أهبته ، فأمرهم بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم ، وبعث الى مكة والى قبائل العرب ليستنصرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله .

كانت هذه الظروف القاسية محكا شديداً للايمان وقوته ، فالايمان الثابت القوى لا يعبأ بالمتاعب مهما شقت أن يخوضها فى سبيل الله وبصحبة رسوله الكريم وتحت قيادته . ولذلك بادر أهل الثراء من المؤمنين بتقديم أنفسهم وأموالهم فأنفق عثمان ابن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، وأحضر أبو بكر جميع ماله وكان أربعة آلاف درهم ، وأحضر عمر بن الخطاب

نصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب ، وجاء العباس بمال كثير وكذلك طلحة ، وجاء عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من التمر رضوان الله عليهم أجمعين ـ وبعث نساء المؤمنين بكل ما قدرن عليه من حليهن .

التثاقل الاول

وقد أخذ بعض الناس فى أول الأمر شىء من التثاقل والتباطىء فوبخهم الله تعالى وعاب عليهم إيثار الدنيا على الآخرة حيث أنزل « يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . . . »

(سورة براءة الآيات من ٣٨ وما بعدها) وقد كانت هذه الآيات

حافزاً ألهب النفوس العامرة بالايمان فذهب عنها ما كان قد ألم بها من الحرص على الدنيا والتثاقل عن القتال . وحرص جميع القادرين على السفر والجهاد لينضموا الى جيش الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتدت درجة الحرص الى أن سبعة من الأنصار كانوا أهل حاجة وفقر ذهبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يضمهم الى الجيش ويجد لهم ما يحملهم عليه ، فلم يوجد لهم ورجعوا باكين . وقد قبل الله عذرهم كما قبل عذر الضعفاء والمرضى وأنزل فى ذلك قوله تعالى «ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ...... (سورة براءة الآية ٩١ وما بعدها)

وفى شأنهم روى أبو داود عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه » قالوا « يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟» قال « حبسهم العذر » (٥).

تصيد الأعذار كان طبيعياً أن ينكشف أمر المنافقين فى وسط هذا التنافس الشديد ، فما لهم ولهذا الحر القاتل وقلوبهم

(*) هؤلاء السبعه هم : (١) سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف (٢) علية بن زيد من بنى حارثه (٣) أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجار (٤) عمرو بن حمام بن الجموح من بنى سلمة (٥) عبد الله بن مغفل المزنى (٦) هرمى ابن عبد الله من بنى واقف (٧) عرباض بن ساريه الفزاوى . وقد لقب هؤلاء بالبكائين . وقد روى أن يامين بن عمير بن كعب النضرى لقى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل يبكيان فسألهما ما يبكيكما قالا جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ، فأعطاهما جملا له كان يستقى عليه الماء فارتحلاه وزودهما شيئاً من تمر ، فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى أيضاً أن العباس رضى الله عنه حمل منهم اثنين آخرين .

خاوية من الايمان بالله ورسوله . ولذلك لم يكن لديهم بد أن يتخلفوا ، وصاروا يتصيدون الأعذار السخيفة والعلل الواهية ثم عملوا على تثبيط همم المؤمنين .

التخلف

أما التخلف فحسبنا ما ورد عن ذلك من الآيات فى سورة براءة – وقد ورد عنه الشيء الكثير – من ذلك قوله تعالى (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم انهم لكاذبون) . . . . . .

(الآية ٤٢ وما بعدها) (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاءاً بما كانوا يكسبون . فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ، ولن

تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) .... (الايه ٨١ وما بعدها) وفى هذه السورة عدد كبير من آى الذكر الحكيم تصور ما كان عليه المنافقون فى هذا التخلف من الصفاقة وسوء التدبير رغم الزجر الشديد الذى كان حتما على القلوب الغافلة أن تستيقظ من سباتها لولا ما ذكره البارىء جل وعلا أنه طبع على قلوبهم فهم لا يعلمون .

بعض أعذار التخلف ومن تلك الأعذار السخيفة أن الجد ابن قيس من بنى سلمة حضر الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى جهازه لهذه الغزوة فقال له الرسول الكريم « ياجد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر » (يعنى الروم) فقال « يارسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر ، ولكن أعينك بمالى » . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « قد أذنت لك » ، ولما علم ابنه قوله ذلك

لام أباه وقال له : « والله ما يمنعك إلا النفاق وسينزل الله فيك قرآناً » فأخذ نعله وضرب به وجهه . فأنزل الله فى شأنه ذلك :

« ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ... » سورة براءة الاية ٤٩ ومابعدها

ولما نزلت الآية قال له ابنه « ألم أقل لك » فقال له أبوه : « اسكت يا لكع لأنت أشد على من محمد » والحق الواضح أن النفاق كان ولا يزال ينزل بصاحبه الى أسفل الدركات . فما كان الجد بن قيس ليتهم نفسه على كبر سنه بالافتتان بالنساء ، وما كان فى سيرته شىء مما اتهم به نفسه ، ولكنه النفاق أبى الا أن ينزل بالرجل فيؤثر التمرد عن قبول التكليف بهذه السخافة ويجعل منها عذراً للتخلف عن الجهاد فى سبيل الله (*) .

عزل المنافقين

كان التخلف إذن فيصلا عزل الجزء الأكبر من المنافقين ، فان المؤمن الصادق فى إيمانه كان يجد فى

(*) يقال ان الجد بن قيس تاب عن النفاق وحسنت توبته وعاش الى خلافة عثمان رضى الله عنه .

الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الدين لذة لا تعادلها لذة يتطلع
من خلالها للأمل الكبير ، وهو الاستشهاد فى سبيل الله ، وقد
وعدهم الله الجزاء الأوفى . قال تعالى : « ما كان لأهل المدينة
ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله
ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم
ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون
موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب
لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين — ولا
ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب
لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » . . . . . .
(سورة براءة الاية ١٢٠ وما بعدها) ولهذا قام المسلمون على بكرة
أبيهم فاشتركوا فى الغزوة إلا من ذكرنا من الضعفاء والمرضى
والمقلين ومن صرح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتخلف
لسبب معين . ولهذا بلغ جيش المسلمين فى هذه الغزوة ثلاثين

ألفاً . ولم يتخلف من المسلمين الذين لا تشوبهم شائبة من النفاق أو ضعف الايمان إلا أربعة أشخاص تخلفوا من غير شك ولا ارتياب فى دينهم ، وهم : كعب بن مالك بن أبى كعب من بنى سلمة ومرارة بن الربيع من بنى عمرو بن عوف وهلال ابن أمية من بنى واقف وأبو خيثمة مالك بن قيس من بنى سالم ابن عوف . أما الأخير فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأما الثلاثة فظلوا على تخلفهم وأبى صدق إيمانهم أن يعتذروا للنبى صلى الله عليه وسلم كما اعتذر المنافقون ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بمقاطعتهم ثم إبعاد نسائهم عنهم ثم تاب الله عليهم على تفصيل نورده فيما بعد .

تأليف فرقة لتثبيط الهمم

كانت المدينة تعج فى هذا الوقت بالنفاق والمنافقين ، وكانت طائفتهم قد وصلت الى آخر ما قدر لها من العدد والتآمر حتى اتخذوا لأنفسهم مسجداً فى قباء ضاحية المدينة . فلما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لهذه الغزوة وقعوا فى أشد الحيرة والاضطراب ، وطفقوا يلتمسون المخرج من ذلك السفر الطويل فى الصحراء المقفرة بين المدينة والشام

النادرة الماء وفى أشد أيام الصيف القائظة . ووجدوا أن تخلفهم وحده غير كاف للخروج من ذلك الحرج فلجئوا الى تأليف فرقة همها أن تثبط همم الناس عن الجهاد . وكان أفراد هذه الفرقة يجتمعون فى بيت يهودى يدعى سويلم بمكان بالمدينة يدعى جاسوم ، يقول بعضهم لبعض « أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله لكأنهم (أى الصحابة) غداً مقرنون فى الحبال » . وقد أرادوا أن يشيع هذا القول فسيكون فيه إرجاف وترهيب للمؤمنين . وقد روى ابن هشام أن هذه الفرقة كان من بينها وديعة بن ثابت من بنى عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشن بن حمير - ويظهر أن هذا الأخير كان ممن استهوتهم الدعاية فلم تسترح نفسه لما سمعه من قول وديعة بن ثابت وفرقته وذلك حيث قال لما سمع ذلك « والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه » وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال لعمار بن ياسر رضى الله عنه « أدرك القوم فانهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فان أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

يعتذرون اليه ، وجاء وديعة بن ثابت ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته ، وجعل يقول وهو آخذ بحقبها (حزام البطن) « يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فانزل الله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » براءة ٦٥ وما بعدها

كان مخشن هو الذى عفى عنه فقال « يارسول الله قعد بى اسمى واسم أبى » وتسمى عبد الرحمن وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر . وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الى الباقين طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة فاقتحم أحدهم وكان اسمه الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه وأفلتوا .

عدم الجدوى من الدعاية

لم تنتج الدعايه المرزية ما أراد لها أصحابها من الارجاف وتثبيط الهمم ، وظل المنافقون فى ترددهم

بين اللحوق والتخلف ولجأ أكثرهم الى الاعتذار والاستئذان والتعلل بالعلل الواهية. وكل ما يمكن أن تكون تلك الدعاية قد أحدثته هو التأثير فى بعض الأعراب المقيمين فى الصحراء المتاخمة للمدينة من قبائل غفار وأشجع وأسلم والمعاهدين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنهم حضروا اليه واعتذروا، وقد روى أن رهط عامر بن الطفيل قالوا «يا رسول الله لو غزونا معك أغارت أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فعذرهم النبى صلى الله عليه وسلم. وقد أنزل الله تعالى فى ذلك «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله» ... (سورة براءة الآية ٩٠ وما بعدها)

ابن أبى ويأسه من الدعاية — لم يكن عبد الله بن أبى بعيداً عن هذه الدعاية، ولا شك أنه كان مركزها الاساسى الذى تصدر عنه وروحها المدبر الذى تستمد منه قوامها. فلما باءت بالفشل عسكر بنفر من المنافقين أسفل ثنية الوداع قريباً من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى كان على ذات الثنية، حتى اذا

اجتمع معه نفر من قومه ومن كانوا على شاكلته والذين استهواهم بدعايته وغرهم بترهاته قال لهم : « يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد الى ما لا طاقة له به يحسب محمد أن قتال بنى الاصفر من اللعب والله لكأنى أنظر الى أصحابه مقرنين فى الحبال » ثم رجع بهم .

يئس البائس المفتون من أمره بعد أن فشلت دعايته التى أوهم نفسه حسن تدبيرها وأثرها ، فعاد الى طريقته القديمة التى سلكها يوم أحد ، فجمع الناس حتى احتشد نفر منهم تحت لوائه وظن أن فى مكنته أن يلهيهم بباطل مزخرف من القول . ولنا أن نتساءل عن السبب الذى دعا ابن أبى للخروج أسفل ثنيه الوداع فى مقابل جيش المسلمين ؛ فان الجهاد لم يكن من غرضه ، ما فى ذلك شك ، ولا بد أنه كان يرمى الى غرض آخر ، ولعل غرضه كان أن يجمع قومه ومن فى قلوبهم مرض ومن أمكنه إدخال التردد والشك الى نفوسهم ليضمن رجوعهم وليرضى شهوة الزعامة التى تتأجج نيرانها فى نفسه فخطب فيهم ثم رجع

بهم ، وكانت مناورة سمجة يعلوها علم الصفاقة ، وتطهر جيش الرسول صلى الله عليه وسلم من أغلب هذا الرهط الخبيث (*) .

ولا شك أن ابن أبى قد قام بدعاية واسعة ضد الغزوة وأنه صاحب الفكرة فى تأليف تلك الفرقة التى فشل أمرها فى تثبيط الهمم ، يدل على ذلك دلالة واضحة أنه كرر على الناس الجملة المأفونة التى تناقلها المجتمعون فى بيت سويلم اليهودى عن قتال بنى الأصفر . ولعل هذه الجملة كانت أشد جمل الدعاية ، ولو أن الذى يتبادر الى الذهن أنهم أخرجوا جملا أخرى من الأباطيل يدل على ذلك ما ورد فى القرآن من تحككهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وملازمته وادعائهم الاسلام ثم قولهم للناس لا تنفروا

(*) فان وجودهم فى جيش المسلمين لا يذيع الا أمراً واحداً وهو اثارة الفتنة وترصد الغوائل ولذلك قال الله تعالى « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » . براءة الآية ٤٧

فى الحر . يقول الله تعالى « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ..... » سورة براءة الايه ٨١ ومابعدها

وظاهر أن هذه الآيات تقصد صراحة فيمن تقصد عبد الله ابن أبى .

ومن العجب ألا يجد المنافقون مركزاً للدعاية غير بيت سويلم اليهودى ، كأنما ضاقت عليهم بيوتهم ، وهذا يعطينا صورة صادقة لجامعة التآمر بين المنافقين ومن بقى من اليهود بعد أن أجلوا جميعاً عن المدينة ، ويفهم من سياق اخراجهم أن هذا البيت كان خرباً قبل أن توضع فيه النيران بأمر النبى صلى الله عليه وسلم .

المتخلفون

ومع ما بذله ابن أبى والمنافقون من الجهد لم

يتخلف بدون سبب مبرر سوى الأربعة السالف ذكرهم ، وسوى من خلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما اثنان محمد بن مسلمة إذ خلفه عاملا له على المدينة ، وعلى بن أبى طالب على أهله .

* * *

خلو المدينة من الرجال الأشداء

خلت المدينة من صاحب الوحى والرسالة وذهب معه فحول الاسلام من الرجال الأشداء فخلا بذلك الجو للمنافقين ، ووجدوا فيه فرصة لملء المدينة بالأراجيف والدعاية الكاذبة . وكثرت الأقاويل والاشاعات . وصارت المدينة تعج فيها ألسنة المنافقين بالأذى والسفه . من ذلك أنهم أرجفوا بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وقالوا « ما خلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه » فلما وصل اليه هذا القول أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف على بعد ثلاثة أميال من المدينة فقال « يانبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى »

فقال « كذبوا ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » فرجع على الى المدينة ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره .

عدول أبى خيثمة

ومن العجب أن يكون هذا القول وما شاكله سبباً فى عدول أحد المتخلفين الأربعة ممن لم يكن عذر ولا نفاق فى قلوبهم وهو أبو خيثمة ، حيث رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً الى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه (بستانه) قد رشت كل منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له فقال « رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح (الشمس) والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم! ما هذا بالنصف » ثم قال « والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيئا لى زاداً » ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله . ثم خرج فى طلب رسول صلى الله عليه

وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك ، حتى اذا دنا منه قال الناس « هذا راكب على الطريق مقبل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن أبا خيثمة » فقالوا « يارسول الله هو والله أبو خيثمة » فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أولى لك يا أبا خيثمة (دنوت من الهلكة) ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر فقال له خيراً ودعا له بخير . وقال أبو خيثمة فى ذلك :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا
أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمد
فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً فى العريش وصرمة
صفايا كراماً بسرها قد تحمما
وكنت اذا شك المنافق أسمحت
الى الدين نفسى شطره حيث يمما

وبقى النفر القليل الذى اندس فى جيش المسلمين يفوح منهم نتن النفاق بين آن وآخر . والمتبادر الى الذهن أن استرسالهم فى هذا السفر لم يكن مبالغة فى التوقى ، ولا تورطاً ، وإنما كان إمعاناً فى النفاق وحرصاً على استجلاء مايقع للمسلمين ، ومراسلة إخوانهم بالمدينة لما يتوقعونه للمسلمين من الهلكة والأذى ، وليتخذ إخوانهم العدة عند ذلك لتنفيذ خططهم ، أو بالأحرى خطط ابن أبى ، ووضع يدهم على المدينة بعد إحداث الهرج والفتنة بها . والعجب أن هذه الجاسوسية كانت مكشوفة للمسلمين وكان المنافقون أو على الأقل كثير منهم ، معروفين لديهم ، مغموزين فى عقيدتهم . روى ابن هشام يحدث عن عاصم بن قتادة عن محمود بن لبيد قال « قلت لمحمود هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم » قال « نعم ، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه ومن عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك » .

الجاسوسية فى الجيش وهذه من أغرب الأوضاع فى الجيوش وهو أن يتحمل الجيش جواسيس من الأعداء معروفين

لقادته وأفراده ، ثم هو لا يخشى شرهم ولا يعنى بأمرهم ، ولكن الغرابة تنتفى بمسألة واحدة وهى أن الجيش كان ذا قوة معنوية لم يعرف التاريخ لها مثيلا يقوده سيد الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق ، وكانت هذه الجواسيس أحط وأذل وأوهن من أن تقوم بأى عمل إيجابى يؤثر فى الجيش .

ونذكر هنا شيئاً مما كانت تفوح به نفوس المنافقين من النتن أثناء الرحلة .

الشدة فى طلب الماء بعد أن مر الجيش فى طريقه الى تبوك على الحجر ديار ثمود التى خربها الله بينهم ، أصبح الناس ولا ماء لهم ، وحصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم حتى حملهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها . فعن عمر رضى الله عنه « خرجنا فى حر شديد - يريد هذه الغزوة - فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على صدره ، فشكوا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبو بكر يارسول الله قد عودك الله من الدعاء خيراً فادع الله لنا قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يده صلى الله

عليه وسلم فدعا ، فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون اليه فقال رجل من الانصار لآخر متهم بالنفاق ويحك قد ترى قال انما مطرنا بنوء كذا وكذا فانزل الله تعالى « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » (سورة الواقعة الايه ٨٢) وقيل إنه قال له « ويحك هل بعد هذا شيء » قال « سحابة مارة » وفى لفظ أنهم لما شكوا اليه صلى الله عليه وسلم شدة العطش قال « لعلى لو استقيت لكم فسقيتم قلتم بنوء كذا وكذا » فقالوا يا نبي الله ما هذا بحين أنواء » فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ ثم قام فصلى فدعا الله تعالى فهاجت ريح وثارت سحابة فأمطروا حتى سال كل واد ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يغترف بقدحه وهو يقول هذا نوء كذا فنزلت الآية.

المنافقون يتحدثون عن ضياع ناقة رسول الله وكيف تأولوه

وفى بعض الطريق ضلت ناقة لرسول صلى الله عليه وسلم فخرج أصحابه فى طلبها ، وعنده رجل من أصحابه يقال له عمارة

ابن حزم ، وكان عقبيا بدريا وكان معه فى رحله زيد بن اللصيت القينقاعى وكان منافقاً . فقال زيد وهو فى رحل عمارة — وعمارة عند رسول الله — « أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمارة عنده؟ « إن رجلا قال هذا محمد يخبركم أنه نبى ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ،وانى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الوادى فى شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها » فذهبوا فجاءوا بهـا . فرجع عمارة بن حزم الى رحله فقال « والله لعجب من شىء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذى قال زيد بن اللصيت فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله « زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى . فأقبل عمارة على زيد يجأ فى عنقه ويقول : إلى عبـاد الله إن فى رحلى لداهية وما أشعر ـ اخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبنى (*)

(*) زعم البعض أن زيداً تاب بعد ذلك وقال البعض الآخر لم يزل متهما بشر حتى هلك .

الشدة فى طلب الماء وعند الاقتراب من تبـوك بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بالماء قلة فقال للجيش « إنكم تأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك وإنكم لن تنـالوها حتى يضحى النهـار ، فمن جاءها فلا يمس منها شيئاً حتى آتى » وأمر منادياً بذلك . ومع ذلك روى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال « فجئناها فاذا العين مثل الشرك تبض من ماء ، وقد سبق اليهـا رجلان من المنافقين ومسا من مائها ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم لذلك ، واغترفوا من تلك العين قليلا قليـلا حتى اجتمع شيء فى شن فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهـه ويديه ومضمض ثم أعاده فجرت العين بماء كثير .

فى العودة من تبوك — حادث العقبه هـذا فى الذهاب الى تبوك . ولم تخل العودة من بعض أعمال المنافقـين التى كانوا يخالفون فيها أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمداً طمعاً فى الخلاف واستكباراً عن الخضوع . فقد روى أنه كان بالطريق ماء يخرج من وشل (حجر يقطر منه الماء قليلا قليلا) ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة ، بواد يقال له وادى المشقق ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سبقنا الى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه » فسبقه اليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه . فلما أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف عليه فلم ير فيه شيئاً فقال « من سبقنا الى هذا الوادى » فقيل له « يا رسول الله فلان وفلان » فقال « أولم ننههم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتيه » ثم لعنهم ودعا عليهم . ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب فى يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه به ومسحه بيده ، ودعا بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء كما يقولون من سمعه ما إن له حساً كحس الصواعق فشرب الناس واستقوا حاجتهم .

ولم ينته المنافقون عند هذا الحد من الحمق والسفاهة وعدم المبالاة إذ أنهم تآمروا على النبى صلى الله عليه وسلم ، واجتمع رأيهم أن يغدروا به فى العقبة التى بين تبوك والمدينة . فقالوا « إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى » . والواقع أن المنافقين فى هذه الغزوة كانوا قلة لا يتجاوز عددهم خمسة عشر رجلا ولم يكن فى وسعهم القيام بأى عمل . وإذن فلم يبق لهم

غرض إلا تحين الفرصة لإشعال الفتنة ، أو أن يكونوا بحيث ينقلون الى معسكرهم الرئيسى بالمدينة أخبار الجيش وأخبار السوء التى كانوا يتوقعونها . فلما انتهت الغزوة الى خير المسلمين وظفرهم ، يئس هذا النفر من المنافقين واشتد عليهم اليأس ، ولم يبق أمامهم إلا الكيد الخبيث ومحاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله تعالى أخبر رسوله بذلك ، فلما وصل الجيش الى العقبة ، نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد واسلكوا بطن الوادى فانه أسهل لكم وأوسع فسلك الناس بطن الوادى وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة . فلما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه وظلا يتناوبان ذلك . فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط

بعض متاعه وغضب رسول الله وأمر حذيفة أن يردهم فرجع
حذيفة اليهم وقد رأى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه
محجن فجعـــل يضرب به وجوه رواحلهم وقال « إليكم إليكم
يا أعداء الله » فاذا هو يقوم ملثمين. فعلموا أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم اطلع على مكرهم ، فانحطوا من العقبة مسرعين
الى بطن الوادى واختلطوا بالناس . فرجع حذيفة يضرب الناقة
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل عرفت أحداً من
الركب الذين رددتهم ، قال « لا كان القوم ملثمين والليلة مظلمة ،
عرفت راحلة فلان وراحلة فلان » قال « هى كما علمت ما كان
من شأنهم وما أرادوه » قال « لا » قال « إنهم مكروا ليسيروا
معى فى العقبة فيزحمونى فيطرحونى منها ، إن الله أخبرنى بهم
وبمكرهم وسأخبركما بهم واكتماهم » فلما أصبح رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاء اليه أسيد بن حضير رضى الله عنه فقال :
« يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادى ، فقد كان أسهل
من سلوك العقبة » قال « أتدرى ما أراد المنافقون » وذكر له

القصة ، فقال « يا رسول الله ، قد نزل النـاس واجتمعوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا فان أحببت بين أسماءهم والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم فقال صلى الله عليه وسلم « انى أكره أن يقول الناس ان محمداً قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم » فقال « يارسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أليس يظهرون الشهادة » ثم جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما قالوا وبما أجمعوا عليه فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر فأنزل الله تعالى : يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما فى الدنيـا والآخرة وما لهـم فى الأرض من ولى ولا

نصير ، ٥٥ : التوبه ٧٤

مسجد الضرار — وقبل أن يصل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل بمكان من ضواحيها يدعى ذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار وهدم مسجد الضرار . وقد أفردنا لذلك فصلا خاصاً نظراً لأهميته سيأتى بعد .

(*) ولهذا كان يقال لحذيفة اليمان أنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته فأوحى اليه ، وراحلته باركة ، فقامت تجر زمامها فلقيتها فأخذت بزمامها وجئت الى قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنختها ثم جلست عندها حتى قام النبى صلى الله عليه وسلم فأتيته بها فقال من هذا قلت حذيفة فقال انى مسر اليك سراً فلا تذكرنه انى نهيت أن أصلى على فلان وعلى فلان وعد جماعة من المنافقين . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب فى خلافته اذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفه رضى الله تعالى عنه فقاده الى الصلاة فان مشى معه حذيفه صلى عليه عمر رضى الله عنه ، وان انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه .

ارجاف المنافقين ثم اعتذارهم

ثم أقبل جيش المسلمين عائدا الى المدينة وقد ملأت بأراجيف المنافقين فى غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المجاهدين ، وأشاعوا أخبار السوء كذباً وافتراء ، يقولون إن محمداً وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا . وبينما هم يتلقفون الأخبار ويتربصون السوء إذا طلائع الجيش تقضى على تلك الاراجيف ، واذا بالمسلمين يعودون سالمين غانمين حامدين ، فكان ذلك ضربة شديدة للمنافقين ولمن تخلف من بطون العرب ، ولم يجدوا بدآ أن يذهبوا للرسول صلى الله عليه وسلم ويعتذرون الية . ولكن الله تعالى أخبر نبيه أمرهم فقال تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم اليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون

لكم لترضوا عنهم ، فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (التوبه ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦)

ولما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا ، وكانوا بضعة وثمانين من المنافقين والمسلمين الثلاثة السابق ذكرهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم » ، وأعرض عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى ان الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه .

أما المنافقون فانما جاءوا ليغطوا موقفهم فجعلوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم ويعتذرون اليه فقبل منهم ظاهرهم وعلانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله . أما الثلاثة فصدقوا فى أقوالهم وأقروا بأنه لم يكن لديهم عذر ، فأرجأهم النبي صلى الله عليه وسلم وأخر أمرهم ، ينتظر أمر الله فيهم ، وقد أنزل الله فى شأنهم أولا قوله تعالى « وآخرون مرجون لأمر الله

إما يعـذبهم وإما يتوب عليهم والله عليــم حكيم »
(ســورة براءة الايه ١٠٦)

قصة التوبة وأهميتها

وقد كانت قصة التوبة على هؤلاء الثلاثة عسيرة وشاقة ، ونالهم من الصدق آلام مبرحة . وقـد شاء الله جلت قدرته ألا يتذوقوا حلاوة الصدق إلا بعـد أن تجرعوا مرارة الصـبر عليه ، وفى ذلك عبرة وعظة للانسان ألا يتـبرم بالصدق اذا اشتدت عليه نتائجه . ونظراً لسمو هذه العبرة فانى أوردهنا تفصيل شأن هؤلاء الثلاثة رضوان الله عليهم ليتبين الى أى حد تحملوا فى سبيل صدقهم .

قال أحدهم وهو كعب بن مالك رضى الله عنه « لم أتخلف عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب رسول الله صلى الله عليه وسـلم أحداً ممن تخلف عنها . إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عـدوهم

على غير ميعاد وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة
العقبة حين توافقنا على الاسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد
بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس . وكان من خبرى حين
تخلفت عنه فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى
حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، ووالله ما اجتمعت لى راحلتان
قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة . وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قلما يريد غزوة إلا ورى عنها بغيرها — حتى كانت تلك
الغزوة فغزاها رسول الله فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً
وغزو عدو كثير . فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم
خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله صلى الله
عليه وسلم كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ . (يعنى بذلك الديوان)
فقل رجل أن يتخلف يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك يخفى مالم
ينزل فيه وحى من الله . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
طابت الثمار وأحبت الظلال ، فالناس اليها صعر (مائلون)
فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجهز المسلمون معه
وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول فى

نفسى أنا قادر على ذلك اذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى
شمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً
والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت أتجهز بعده
يوم أو يومين ، ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ،
فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ،
فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفرط الغزو ، فهممت
أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم أفعل ، وجعلت اذا
خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم
فطفت فيهم ، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا (مطعوناً)
عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم
يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو
جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل
من بنى سلمة « يا رسول الله حبسه حب برديه ، والنظر فى عطفيه »
فقال له معاذ بن جبل « بئس ماقلت ، والله يارسول الله ماعلمنا
منه إلا خيرا » فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما

بلغنى أن رسول الله قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى ، فجعلت
أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى
الله عليه وسلم غدا ، وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى .
فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت
أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه . وصبح رسول
الله صلى الله عليه وسلم المدينة . وكان اذا قدم من سفر بدأ
بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك
جاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة
وثمانين رجلا ، فيقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم
وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم الى الله تعالى ، حتى
جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم الغضب ، ثم قال لى تعاله ، فجئت
أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ألم تكن
ابتعت ظهرك ؟ قلت إنى يارسول الله ، والله لو جلست عند غيرك
من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد
أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم
حديثاً كذباً لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن

حدثتك حديثاً صدقاً تجد على فيه ، أنى لأرجو عقباى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت ، وثار معى رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى وقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسول الله بما اعتذر به اليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك . فو الله ما زالوا بى حتى أردت أن أرجع الى رسول الله فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا أحد غيرى ؟ قالوا نعم ، رجلان قالا مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمرى من بنى عمرو بن عوف ، وهلال بن أبى أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أسوة . فصمت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا — حتى تنكرت

لى نفسى والارض ، فما هى بالارض التى كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج ، وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالاسواق ، ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى ، هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ، ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتى نظر الى واذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى اذا طال ذلك على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فو الله ما رد على السلام . فقلت يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت فناشدته فسكت عنى فعدت فناشدته فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، ووثبت فتسورت الحائط ، ثم غدوت الى السوق فبينا أنا أمشى بالسوق اذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك قال فجعل الناس يشيرون إلى حتى جاءنى ، فدفع إلى كتاباً من

ملك غسان ، وكان الكتاب مكتوبا فى سرقة من حرير (شقة) فاذا فيه ، أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، فألحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها الى تنور فسجرته بها . فأقمنا على ذلك حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، اذا رسول رسول الله يأتينى فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قلت أطلقها أم ماذا ؟ قال بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل الى صاحبي بمثل ذلك . فقلت لامرأتى الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الامر ما هو قاض . وجاءت امرأة هلال ابن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له أفتكره أن أخدمه قال لا ولكن يقربنك قالت والله يا رسول الله ما به من حركة الى ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره ، فقال لى بعض أهلى ، لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ،

فقلت والله لا أستأذنه فيها ، ما أدرى مايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب . فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال التى ذكر الله بنا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت على نفسى ، وقد كنت ابتنيت خيمة فى ظهر سلع ، فكنت أكون فيها ، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته ، يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج — وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر — فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبى مبشرون ، وركض رجل الى فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت ثوبى فكسوتهما إياه بشارة والله ماأملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما . ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة .

يقولون ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقـــام طلحة بن عبد الله يهرول ، فحياني وهنـــأني ، والله ما قام الى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة (*) . فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال بل من عند الله . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتى الى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة الى الله والى رسوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت إنى ممسك سهمى الذى بخيبر وقلت يا رسول الله إن الله قد نجانى بالصدق ، وإن من توبتى الى الله ألا أحدث إلا

(*) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين كعب بن مالك وطلحة ابن عبيد الله .

صدقاً ما حييت ، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلانى الله ، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى — فو الله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للاسلام ، كانت أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فان الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد قال « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين »

براءة (٩٥ ، ٩٦) قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه-

وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ماقضى . وقد أنزل الله تعالى في شأن توبتهم قوله «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (براءة ١١٧، ١١٨، ١١٩)

وكان المبشر لهلال بن أمية أسعد بن أسد ، وكان المبشر لمرارة بن الربيع سلطان بن سلامة وقيل سلامة بن وقش — وكان نزول التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة

فقال يا أم سلمة تيب على كعب قالت أفلا أرسل اليه فأبشره قال إذا يحطمنكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أعلم بذلك .

هذه هى القصة أوردناها على طولها مفصلة كما وردت فى كتب السيرة . وانما أردنا بذلك أن نستعرض تلك المشقة الطويلة التى اقتضت حكمة الله تعالى أن يلهم عباده المخلصين أن يتحملوا محنتها ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وليكونوا للعالم من بعدهم مثلا عالياً للصدق وشدائده ، وليعلم المفتونون أن الشدائد هى التى تطهر الانسان فتجعل منه صفاء ونقاء أو تلق به مع الخبث إن كان خلواً من الجوهر الصافى النقى — هذان صنفان من المتخلفين يصدق الأول فيقاطعهم المسلمون ويأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يعتزلوا زوجاتهم ، وتضيق عليهم الأرض ويبلغ بهم الضيق مداه وهم صابرون لقضاء الله . والثانى أقسموا اليمين كاذبين ، واعتذروا كاذبين ، فلم يحاسبهم النبى صلى الله عليه وسلم ووكل سرائرهم الى الله ، فاخذهم

الغرور أن قد أفلتوا من العقاب . هذا وأعين المسلمين الفاحصة تنظر اليهم من كل ناحيـة هازئة هادئة . أى نفوس زرية كانت نفوس المنافقين حتى يصل بهم النفاق الى هذه الدرجة الدنيئة من امتهان النفس وانحطاطها !

انتهى أمر المنافقين فى غزوة تبوك إلا ما كان من شأن مسجد الضرار ونذكر أمره فيما يلى .

مسجد الضرار

فكرة انشاء مسجد الضرار

عند ما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً اليها من مكة نزل قبل دخولها بضاحية لها تدعى قباء فى بنى عمرو بن عوف من بطون الخزرج . وبنى بها أول مسجد فى الاسلام . وكان هذا المسجد محلا لاقامة الشعائر فى هذا الحى وفخراً لبنى عمرو بن عوف ، ويظهر أن المنافقين رأوا فى موقع هذه الضاحية وهدوء أهلها فرصة لجعلها مركزاً لمجتمعهم ، ومنتدى للتآمر وإحداث الشغب . قيل إن أبا عامر الفاسق — وقد سبق الكلام عنه — أمر ببنائه وأشار أن ابنوا لى مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة . وقد اخترع المنافقون إشاعة فى بنى عمرو بن عوف ليستفزوا ضعاف النفوس ومرضى القلوب كما استفزوا إخوتهم بنى غنم بن عوف وحاولوا أن يشعلوا فيهم نار الغيرة من بنى

عمرو بن عوف فقالوا عن مسجد قباء إنه بنى فى مكان كانت تربط فيه امرأة حمارها واستنكروا أن يصلوا فى مربط حمار، واعتقدوا أن ذلك يقوم سبباً حقيقياً للنفور من مسجد بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام فيه المسلمون يعبدون الله. وتضافرت هذه الأشاعات والتخرصات بعضها مع بعض فحفزت اثنى عشر رجلا من بطون مختلفة فبنوا المسجد الذى أشار به أبو عامر الفاسق وهم :

أسماء بناته

(١) خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمر بن عوف وبنى من داره

(٢) ثعلبة بن حاطب — من بنى أمية بن زيد

(٣) معتب بن قشير — من بنى ضبيعة بن زيد

(٤) أبو حبيبة بن الأزعر — من بنى ضبيعة بن زيد

(٥) عباد بن حنيف — أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف

(٦) جارية بن عامر — من بنى ضبيعة

(٧) مجمع بن جارية بن عامر من بنى ضبيعة
(٨) زيد بن جارية بن عامر « « «
(٩) نبتل بن الحارث « « «
(١٠) بحزج « « «
(١١) بجاد بن عثمان « « «
(١٢) وديعة بن ثابت من بنى أمية بن زيد رهط أبى لبابه ابن المنذر .

ويكفى عند استعراض أسماء هؤلاء الاثنى عشر أن نجد من بينهم نبتل بن الحرث الذى نبه الامين جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان دسيسة ينقل أخبار المسلمين الى الكفار وأن كبده أغلظ من كبد الحمار ، ثم معتب بن قشير ووديعة بن ثابت لنعلم أن أصبع النفاق كان الاساس الاول والاخير لتلك المؤسسة الفاسقة ، وأن رءوساً مريضة هى التى فكرت فى إنشائها لأغراض أوسع مما ظهرت به ثم اختبأت وراء هؤلاء الذين بنوه . وللباحث المفكر أن يرى دلائل هذه الرءوس فى أبى عامر الفاسق ثم فى شيوخ المنافقين .

المسجد عش للمتآمرين وأحداث الفتن

بنى المسـجد وصار المنـافقون يعقدون به مؤتمراتهم ووجدوا بين حيطانه مكاناً يسهل فيه اجتماعهم . وصاروا يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويستهزئون به ، وينتظرون أبا عامرهم بما وعدهم ، وستروا أمرهم بأن ذهبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز الى تبوك ، فقالوا يا رسول الله « إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتيـة ، وانا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فقال « إنى على جناح سفر وحال شغل ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم « ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه ،

ومن غريب أمر تلك الفئة وحرصها على التستر أنهم استدرجوا للامامة شاباً حدثاً هو مجمع بن حارثة ولم يكن يعلم بشيء من نياتهم ولذلك لما كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب بنو عمرو بن عوف منه أن يأذن لمجمع بن حارثة أن

يومهم فقال « لا ولا نعمة عين أليس بأمام مسجد الضرار »

فقال بجمع « يأمير المؤمنين لا تعجل على فو الله لقد صليت بهم

والله يعلم أنى لا أعلم ما قد أضمروا عليه ولو علمت ما صليت

معهم فيه ، كنت غلاما قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا

على جاهليتهم وكانوا لا يقرئون من القرآن شيئاً ، فصليت ولا

أحسب ما صنعت إثماً ولا أعلم بما فى أنفسهم » فعذره عمر

وصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء .

وقد كان المسلمون فى تلك الناحية يصلون فى مسجد قباء

جماعة فلما بنى هذا المسجد صرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا

بذلك المسجد ، فكان فى ذلك تفريق للمؤمنين ومحاولة للبحث عن

ضعاف النفوس لضمهم الى تلك الفئة .

ولكن الله تعالى كشف سترهم وفضح نياتهم ، فما كاد النبى

صلى الله عليه وسلم يصل الى ذى أوان من ضواحى المدينة راجعاً من

تبوك حتى أتاه فريق المنافقين يدعونه الى الصلاة فى مسجدهم

فدعا بقميصه ليلبسه فنزل قوله تعالى « والذين اتخذوا مسجداً

ضرارا و كفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه ابدا المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » براءة من ١٠٧ الى ١١٠

عند ذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعين بن عدى أو أخاه عاصم ابن عدى من بنى العجلان وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة فقال « انطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا

سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن أنظرنى حتى أخرج اليك بنار من أهلى ، فدخل الى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه وكان ذلك بين المغرب والعشاء ووصل الهدم الى الأرض .

وفاة ابن أبى

احتضاره وطلبه قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمض وقت طويل بعد غزوة تبوك حتى هلك رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة التاسعة ـ وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما اشتكى عبد الله بن أبى عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن أبى « امنن على فكفنى فى قميصك وصل على فأرسل اليه القميص الفوقانى فرده وطلب الذى يلى جلده ليكفن فيه فقال عمر رضى الله عنه لم تعطى قميصك الرجس النجس فقال عليه الصلاة والسلام إن قيمصى لن يغنى عنه من الله شيئاً .

الصلاة عليه وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ خلق كثير . فلما مات جاءه ابنه يعرفه فقال عليه الصلاة والسلام

لابنه صل عليه وادفنه فقال إن لم تصل عليه يارسول الله لم يصل عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه فقام عمر فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلى عليه وقال يا رسول الله أتصلى عليه وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا وعدد عليه أشياء مثل قوله لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقوله ليخرجن الأعز منها الأذل فنزل قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » براءة ٨٤ وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبي صلى الله عليه وسلم وتلا الآية فامتنع عن الصلاة .

(*) هذه منقبة من مناقب عمر رضي الله عنه وذلك لأن الوحى نزل على وفق قوله فى آيات كثيرة منها آية أخذ الفداء عن أسارى بدر وثانيها آية تحريم الخمر وثالثها آية تحويل القبلة ورابعها آية أمر النسوان بالحجاب وخامسها هذه الآية .

هذا ما رواه الفخر الرازى فى تفسيره ولكن الرواية التى أوردها ابن هشام وأغلب أصحاب السير تقول إن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على ابن أبى ثم ورد النهى بعد ذلك - وانا نميل الى القول الأول لأنه يجعل للنهى موضعاً حيث كان المقصود منه الامتناع عن الصلاة قبل أن تصلى .

ولسائل أن يسأل عن السبب الذى من أجله رغب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه وهو يعلم أنه كافر وأنه مات على كفره وأن صلاة الرسول عليه فيها معنى الاجلال والتعظيم له وأيضاً فان الصلاة تشمل الدعاء للميت والله تعالى قد ذكر أنه لا يغفر للكفار البتة ثم ما هو السبب فى إعطائه القميص .

تفسير الغرض من اعطاء القميص والشروع فى الصلاة عليه لقد ذهب المفسرون فى هذا الشأن جملة مذاهب . والذى لا شك فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتبع مع المنافقين سياسة واحدة وهى معاملتهم معاملة المؤمنين فى كل شئ إلا أن يكشف الله

الغطاء عن أفعالهم . وسنذكر تفصيل ذلك فى باب مستقل إن شاء الله تعالى ويضاف الى ذلك فى مسألة وفاة ابن أبى أمور أخرى وهى (١) أن النبى صلى الله عليه وسلم رغب فى الصلاة عليه تطييباً وإكراماً لولده الصالح و (٢) تأليفاً للخزرج وخاصة من لم يؤمن منهم أو كان منافقاً ، فلو لم يجب ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهى لكان سبة على ابنه وعاراً على قومه فاستعمل أحسن الأمرين . أما اعطاء القميص فقد سبق أن عبد الله بن أبى أعطى قميصه للعباس رضى الله عنه لما أسر فى موقعة بدر فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يكافئه على ذلك وخاصة أن ابن أبى كان يطلب القميص وهو فى حد ذاته شىء يسير قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم انه لا يغنى عن الايمان شيئاً .

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن السبب ربما كان أنه لما طالب من الرسول عليه السلام أن يرسل اليه قميصه الذى مس جلده ليدفن فيه غلب على ظن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه انتقل الى الايمان لأن ذلك الوقت وقت يتوب فيه الفاجر

عدو من فيه الكافر ، فلما رأى منه إظهار الاسلام وشاهد منه هذه الأمارة التى دلت على دخوله فى الاسلام غلب على ظنه أنه كان مسلماً وكانت الرحمة غالبة على الرسول الكريم مصداقا لقوله تعالى عنه « بالمؤمنين رءوف رحيم » « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فلهذا غلب عليه ذلك الظن ورغب فى أن يصلى عليه فلما نزل جبريل عليه السلام من عند الله وأخبره بأنه مات على كفره ونفاقه امتنع من الصلاة عليه إذ لم يبق محل لذلك الظن .

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعاملة الكريمة سبباً فى رجوع الكثير من قومه وعموم المنافقين عن غيهم — روى الطبرانى عن قتادة قال ذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم قال وما يغنى عنه قميصى من الله وإنى لأرجو بذلك أن يسلم ألف من قومه وأورد القسطلانى فى شرح البخارى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوا ابن أبى يستشفع بثوب النبى صلى الله عليه وسلم ويتوقع اندفاع العذاب عنه .

وبعد نزول الآية الكريمة لم يصل الرسول صلى الله عليه وسلم

على منافق حتى انتقل الى الرفيق الأعلى .

وكان موت ابن أبى إيذاناً باندحار حزب المنافقين بعد أن انكسرت شوكتهم وخابت آمالهم وتبدد كيدهم وافتضحت مخازيهم بما أنزل الله تعالى فى شأنهم من القرآن فكان وابلا أذاب ما عقدوه من الاراجيف . وانتقل النفاق بعد النبي صلى الله عليه وسلم الى أوضاع شتى وخاصة بعد أن فتحت بلاد فارس والروم وما اليها وخلط أصحاب النفاق من عقائد المجوس والثنويه والمزدكية والبرهمية وما اليها أشتاتاً متناثرة وأقحموها فى الاسلام . وتكونت بذلك فرق كثيرة ونحل غريبة وفتن معقدة متشابكة ليس من موضوع هذا الكتاب تفصيلها .

تعريف النفـــاق

وعنـاصره وأهميته

النفـاق لغة

ذكرنا فى مقدمة هذا الكتاب تعريفاً عاماً للنفاق وقلنا إنه ضرب من ضروب الكذب . ونعـود الآن الى تفصيل هذا التعريف . والى بيان عناصر النفاق ومكوناته وأهمية أمره .

قال علماء اللغة إن النفاق كلمة مشتقة من النافقـــاء وهو جحر اليربوع . ولليربوع جحران أحدهما يقال له النافقاء والثانى يقال له القاصعاء . واليربوع يفعل ذلك لاظهار غير الحقيقة دفاعاً عن حياته فهو يخرق الأرض حتى اذا كاد يبلغ ظاهرها أرق التراب . فاذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج فظاهر جحره تراب وباطنه حفر ، وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر .

معنى النفاق وتحديد الفخر الرازى بتقسيم أحوال القلب واللسان

والنفاق يدل على نوع معتل من العقيدة ، أو على خلل طارىء يعرض للعقيدة فيفسدها . أو على التضارب بين العقيدة الباطنة والعقيدة الظاهرة . وفى تحديد معنى النفاق فصل الفخر الرازى فى تفسيره جدولا مؤسساً على التقسيمات المنطقية ذكر فيه أن أحوال القلب فيما يتعلق بالعقيدة أربع : فأما أن تكون العقيدة مطابقة للحق أو غير مطابقة له وإما أن يكون القلب خالياً من الاعتقاد والاعتقاد المطابق للحق إما أن يكون عن دليل أو يكون تقليداً بلا دليل . وأن أحوال اللسان أحد أمور ثلاث هى الاقرار أو الانكار أو السكوت فينتج من أحوال القلب مع أحوال اللسان اثنا عشر حالة . وهذه الأحوال إما أن يكون كل من الاقرار أو الانكار أو السكوت اختيارياً أو اضطرارياً فهذه أربع وعشرون حالة فصلها كالآتى :

«١» الاقرار الاختيارى باللسان مع الاعتقاد الصحيح بالقلب إيمان واضح «٢» والاضطرارى إن كان مقصوداً فيو شك صاحبه

أن يكون منافقاً حيث لا معنى ألا يقر بلسانه إلا مضطراً «٣»
والانكار باللسان مع الاعتقاد الصحيح بالقلب إن كان اختيارياً
فهو الكفر والعناد «٤» وان كان اضطرارياً فصاحبه مسلم ورد
فى شأنه قوله تعالى « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » «٥»
والسكوت فى حالة العقيدة الصحيحة إن كان اضطرارياً فصاحبه
مسلم «٦» وان كان اختياريا كان محل بحث ويميل الغزالى الى
اعتبار صاحبه مؤمناً . أما الاعتقاد التقليدى ففى علم الكلام أبحاث
مطولة موضوعها الحكم على ايمان المقلد هل يعتبر ايماناً صحيحا
أم لا ؟ فعلى الاخذ باعتبار ايمان المقلد صحيحاً ففى حالة «٧»
الاقرار الاختيارى يكون الايمان صحيحاً «٨» فان كان اضطرارياً
فهو نفاق «٩» وفى حالة الانكار الاختيارى فهو كفر «١٠» فان
كان الانكار اضطرارياً فهو ايمان «١١، ١٢» وحالتا السكوت فيه
مطابقة لحالتى السكوت السابقة . وتأتى بعد ذلك حال الاعتقاد
غير المطابق للحق أو الاعتقاد الجاهل فالاقرار فيه «١٣، ١٤»
نفاق سواء أكان اختيارياً أم اضطرارياً والانكار والسكوت
فيه «١٥، ١٦، ١٧، ١٨» كفر سواء أكان اختيارياً أم اضطرارياً .

والنوع الأخير وهو خلو القلب من الاعتقاد إن صحبه الاقرار الاختيارى «١٩» فأما أن يكون المقر فى مهلة النظر فلا يلزم منه الكفر ولكنه فعل ما لا يجوز وان لم يكن فى مهلة النظر كان محل بحث وتأمل . فان كان الاقرار اضطراريا «٢٠» فلا يتصور الاضطرار فى غير مهلة النظر فان كان فى مهلة النظر فلا يكون عمله قبيحاً ولا يكون كفراً ولا نفاقا . أما حالتى «٢١،٢٢» الانكار فهما على عكس حالة الاقرار . وأما حالة السكوت «٢٣» فان كان اختيارياً وفى مهلة النظر فهو الواجب حتى تنتهى المهلة وان كان بعد انتهائها فهو كافر لا منافق . ولا يتصور السكوت الاضطرارى «٢٤» .

وينتج من هذا أن النفاق ينصرف الى أربعة أحوال من الأحوال الأربعة وعشرين وهى حالتا الاقرار الاختيارى أو الاضطرارى باللسان مع العقيدة القلبية غير المطابقة للحق وحالة الاقرار الاضطرارى مع العقيدة القلبية المطابقة للعلم الصحيح عن دليل أو عن تقليد .

أقسام الناس حسب العقيدة وقد انقسم الناس على أساس هذا التقسيم الى ثلاثة أنواع «١» مؤمنون ظاهرون بحسن اعتقادهم و «٢» كافرون يجاهرون بكفرهم وعنادهم «٣» ومنافقون مذبذبون يظهرون الايمان بألسنتهم ويضمرون الكفر فى قلوبهم . وقد ورد هذا التقسيم فى أول القرآن فذكر الله تعالى شأن المؤمنين وأثنى عليهم فى أربع آيات ثم ذكر الكافرين وأنه ختم على قلوبهم وسمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة وتوعدهم بالعذاب العظيم فى آيتين ثم ذكر المنافقين فى ثلاث عشرة آية بين فى تسع منها صفاتهم وأحوالهم وضرب بشأنهم مثلين مفصلين مليئين بالعجيب المعجز والدقة الباهرة فى أربع آيات .

أهمية شأن المنافقين وتفصيله فى القرآن وأظهر ما يستفاد من هذا الوضع الأهمية البالغة لأمر المنافقين حيث شملهم فى أول القرآن ثلاث عشرة آية بينما شمل المؤمنين أربع آيات والكافرين آيتان . ويضاف الى ذلك أن القرآن فصل أمر المنافقين فى مواضع عديدة لا تقل فى مجموعها عن عشر القرآن .

وترجع هذه الأهمية الى أمرين : الأول أن أمر المنافق أشد خطراً من أمر الكافر والثانى توجيه النظر الى أهمية علاج أمرهم.

وقد قال بعض العلماء إن كفر الكافر أقبح من كفر المنافق وعللوا ذلك بأن الكافر جاهل بالقلب كاذب باللسان وأن المنافق جاهل بالقلب صادق باللسان ولكن ذلك غير مطابق للواقع لأن المنافق كاذب يدل على ذلك قوله تعالى (والله يشهد إنهم لكاذبون).

الفرق بين الكافر والمنافق

والواقع أن المنافق والكافر فى الكفر سواء إلا أن المنافق يختص علاوة على الكفر بأمور منكرة منها : «١» أن المنافق قصد التلبيس والكافر لم يقصد ذلك و «٢» أن الكافر لم يرض لنفسه بالكذب بل استنكف منه والمنافق رضى به «٣» أن المنافق يفقد بنفاقه خلق الشجاعة والشهامة ويتردى من نفاقه الى الخصال الدنيئة من الجبن والخداع والبخل والتردد ثم الى ما هو أشد خطراً من الكذب كالاستهزاء بالله وآياته وظن السوء بالله ولهذا قال الله تعالى « إن المنافقين فى

«الدرك الأسفل من النار» النساء ١٤٠ و «٤»، أن المنافقين كانوا أشد خطرا على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وكان بحكم المخالطة يفشى أسراره والى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك».

اختلاط المنافقين بالمسلمين

وقد كان المنافقون مختلطين اختلاطاً شديدا بالمسلمين ولم يكن جميع أمرهم معروفاً. ويرجع السبب فى هذا الاختلاط أنهم لم يكونوا من قبيلة واحدة ولا فى مكان واحد بل كان فى كل قبيلة عدد كبير فكان فى كل من فروع الأوس والخزرج منافقون كما كان من قبائل اليهود الثلاث منافقون، وكما كان فى أعراب البوادى وخاصة الضاربة حول المدينة منافقون. وقد جمعت بين أشتاتهم جامعة مزيفة وهى التحزب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يظنون فى أنفسهم الألفة والمنعة والشدة حتى اذا حزبهم الأمر وضاقت

بهم الضائقة ألقوا أنفسهم ضعافاً مستخذلين، ورأوا ما جمعهم
إنما كان قطعاً مرقعة من سبائب المهانة والذلة ، وصدق عليهم
قول الله عز وجل « تحسبهم جميعـاً وقلوبهم شتى ، ذلك
بأنهم قوم لا يعلمون » (الحشر ١٤)

تمييز المنافقين

وكان للمنافقين من خـلالهم وأفعالهم
علامات وميزات يتميزون بها ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم
يتفرسون بهذه العلامات ليتحاشوا أعداءهم من المنافقين .
وليعلموا مواطن التجسس ، وليدرءوا عن أنفسهم شرورهم
وكيدهم وقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم عن هذه العلامات
مخاطباً رسوله عليه السلام « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم
بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالكم »
(القتال ٣٠)

كذلك كان كثير من الاحداث محكا وبلاء عزل المنافقين
عن المؤمنين كما حدث فى موقعة أحد وموقعة تبوك وغيرهما ،

وقد ورد فى كتاب الله تعالى إشارات كثيرة الى ذلك منها قوله تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (آل عمران ١٦٦-١٦٨)

(أم حسبتم أن تتركوا، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) (براءة ١٦)

وكانت هناك علامات أخرى هى خليط من الأخلاق الوضيعة والصفات المهينة كالخداع والحسد والعجب أشربت بها

قلوب المنافقين نتيجة لازمة لما اختزن فى قلوبهم من الكفر والضغن والرياء .

حديث خصال المنافقين واختلاف الآراء فى ذلك وقد أخرج البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . اذا ائتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر » — وقد ورد هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى رواية أخرى وهى : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان » .

والذى ينتج من التأويل الحرفى لهذا الحديث أن ارتكاب شىء من الكذب أو الخيانة أو الاخلال بالوعد معناه الانتقال من حالة الايمان الى حالة النفاق مع أن هذه الأشياء من المعاصى .

وقد اختلفت الآراء فى هذا الموضوع وانقسمت الى خمسة آراء :

فالأول : وهو رأى البخارى والحسن البصرى وبعض أهل العلم أخذوا بظاهر النص وقالوا إن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها . وفى الاعتراض على هذا نقل عن واصل ابن عطاء قال : أتى الحسن رجل فقال له إن أولاد يعقوب حدثوه فى قولهم أكله الذئب وكذبوه ، ووعدوه فى قولهم وإنا له لحافظون فأخلفوه ، وائتمنهم أبوهم على يوسف فخانوه فهل نحكم بكونهم منافقين ؟ فتوقف الحسن رحمه الله . وهذا الاعتراض وحده كاف أن يجعل هذا الرأى محلا للتأمل والنظر .

والثانى : أن ذالك مخصوص بالمنافقين فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستندوا على ما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس قالا أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه فقلنا يارسول الله إنك قلت « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان ، ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث النفاق ، فظننا أنا لم نسلم منهن

أو من بعضهن ولم يسلم منهن كثير من الناس . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ما لكم ولهن انما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله فى كتابه أما قولى اذا حدث كذب فذلك قول الله عز وجل اذا جاءك المنافقون (الآية) أفأنتم كذلك قلنا لا قال لا عليكم أنتم من ذلك براء . وأما قولى إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله على « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله » (الآيات الثلاث) أفأنتم كذلك قلنا لا والله لو عاهدنا الله على شىء أوفينا به قال لا عليكم أنتم من ذلك براء . وأما قولى اذا ائتمن خان فذلك فيما أنزل الله على « إنا عرضنا الأمانة » (الآية) فكل انسان مؤتمن على دينه فالمؤمن يغتسل الجنابة فى السر والعلانية والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية أفأنتم كذلك قلنا لا قال لا عليكم أنتم من ذلك براء — والى هذا الرأى ذهب كثير من التابعين والأئمة . قال عطاء بن أبى رباح حدثنى جابر ابن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم انما ذكر قوله ثلاث من كن فيه فهو منافق فى المنافقين خاصة الذين حدثوا النبى صلى الله

عليه وسلم فكذبوه وائتمنهم على سره فخانوه ووعدوا أن يخرجوا معه فأخلفوه .

والثالث : فسر الحديث بأن المقصود هو من اذا حدث عن الله كذب عليه وعلى دينه ورسوله واذا وعد أخلف كما ذكره فيمن عاهد الله واذا ائتمن على دين الله خان فى السر فكان قلبه على خلاف لسانه — وهذا التفسير ينقل الحديث من معناه العام الى تعريف النفاق .

والرابع : هو أن المقصود بالحديث من يحدث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهدا لا يعتقد الوفاء به وينتظر الأمانة للخيانة فيها واستند أصحاب هذا الرأى الى حديث ضعيف الأسناد هو أن على بن أبى طالب لقى أبا بكر وعمر رضى الله عنهم خارجين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال على مالى أراكما ثقيلين قالا حديث سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا ائتمن خان واذا وعد أخلف فقال على أفلا سألتماه فقالا

هبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لكنى سأسأله فدخل
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله خرج أبو بكر
وعمر وهما ثقيلان ثم ذكر ما قالاه فقال قد حدثتهما ولم أضعه
على الوضع الذى وضعاه ولكن المنافق اذا حدث وهو يحدث
نفسه أنه يكذب واذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف واذا
ائتمن وهو يحدث نفسه أنه يخون ـ والواقع أننا اذا وضعنا
ضعف الاسناد فى هذا الحديث جانباً ، نجد أن التأمل فى هذا
الرأى وفى تفسيره لا يوصل الى أمر واضح .

والخامس : قال ابن العربى قد قام الدليل على أن متعمد هذه
الخصال لا يكون كافراً وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود الى الجهل
بالله وصفاته أو التكذيب له ، وأنه لو غلبت المعاصى ما كان بها
كافراً ما لم تؤثر فى الاعتقاد .

نتيجة الآراء

والواقع أن القول بأن ارتكاب شىء من
الكذب أو الخيانة أو عدم الوفاء بالوعد ينقل مرتكبه من
الايمان الى النفاق هو قول خطر يقلب قواعد التوحيد . فالنفاق

أمر يتعلق أول ما يتعلق بالعقيدة وسترها باللسان وتزويرها .

فاذا ما كانت العقيدة صحيحة سليمة ولم يطرأ عليها من اللسان ما يفسدها أو يزيفها فان المعاصى ليس من شأنها أن تغير العقيدة فى وجود الله وفى صفاته وفى رسالة النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد روى عن الحسن بن أبى الحسن البصرى ما يعدل رأيه حيث قال إن النفاق نفاقان نفاق الكذب ونفاق العمل فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع الى يوم القيامة ، كذلك روى البخارى عن حذيفة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فانما هو الكفر بعد الايمان . ولعل هذا التكييف للنفاق هو الذى حدا بالبخارى رحمه الله إلى الأخذ بظاهر الحديث .

المراد بالحديث

والحقيقة التى لاشك فيها أنه لم يكن للمنافقين علامات مميزة خاصة يتميزون بها وإنما كانت الحوادث والأيام تكشف الكثير منهم . ولعل المقصود من الحديث أن الكذب والخيانة والاخلال بالعهد من أخص خصائص النفاق وأن

المنافقين يفعلون هذه الأفعال الذميمة وهم يستحلونها ويستمرئونها ويعتقدون أنها الحكمة واللباقة والكياسة فضلوا بذلك عن سبيل الله واستحلوا ما حرم الله فكفروا ، وستروا كفرهم فنافقوا . وأمر الرسول عليه السلام أصحابه أن يتعدوا عن هذه الخلال حتى لا يكونوا موضعاً للشك ، وحتى يتباعدوا عن صفات يدرع بها المنافقون ويعتمدون عليها .

على أنى أرى <u>خطر الكذب والخيانة والاخلال بالوعود على العقيدة</u>

من خلال هذا الحديث الكريم معنى سامياً يرجع الى أصل من الأصول الأساسية فى علم النفس وهو أن تكوين العقيدة والعادة يرجع إلى كثير مما يقوم به الانسان من الأعمال ومما يتوارد عليه من الخواطر ومما ترتغبه النفس من الرغائب وما تنزع اليه من الشهوات وما تضطرب فيه من العواطف والأحاسيس وأن كل ذلك يشترك فى تكوين شخصية الفرد ويذهب به إلى الخير أو إلى الشر فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتباعد المؤمنون

عن الكذب والخيانة والاخلال بالوعد لأن هذه الصفات المرذولة من أخطر الأشياء على النفس إذ تعودها على الجرائم وتدفع بها إلى الهلكة وتمشى بها ولو رويدا إلى ما يخشى منه على العقيدة ـ قال الله تعالى فى شأن مخلفى الوعد (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) وظاهر من هذه الاية أن نقض العهد وخلف الوعد والكذب يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه وأنه إذا عاهد الله فى أمر فعليه أن يجتهد فى الوفاء به . وقد نزلت هذه الاية الكريمة فى شأن رجل عاهد الله إذا أثرى أن يؤدى الزكاة ، فلما أثرى امتنع عن أدائها وعن أداء الصلاة ثم اندفع إلى النفاق وهو رجل من الأوس كان يدعى ثعلبة ابن حاطب . ونظرا لما فى قصته من العبرة والعظة فانا نوردها هنا .

قصة ثعلبة بن حاطب وقد كان من أمره أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه

السلام ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بهم المدينة فتنحى ونزل وادياً من أوديتها فجعل يصلى الظهر والعصر ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ثم ترك الجمعة وطفق يتلقى الركبان يسأل عن الاخبار . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فأخبر بخبره فقال يا ويح ثعلبة فنزل قول الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ..... (براءة ١٠٣) فبعث إليه رجلين وقال لهما مرا بثعلبة وبفلان — رجل من بنى سليم —) فخذا صدقاتهما فأتيا ثعلبة فقال لهما ما هذه إلا أخت الجزية ولم يدفع الصدقة فأنزل الله تعالى « ومنهم من عاهد الله ... الآية (براءة ٧٥ وما بعدها) فقيل له قد أنزل الله فيك كذا وكذا فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته فقال إن الله منعنى من قبول ذلك ، فجعل يحثى التراب على رأسه

فقال عليه الصلاة والسلام قد قلت لك فما أطعتنى . ولما انتقل الرسول عليه السلام الى الرفيق الأعلى أتى ثعلبة أبا بكر بصدقته فلم يقبلها اقتداء بالرسول عليه السلام ثم لم يقبلها عمر اقتداء بأبى بكر ثم لم يقبلها عثمان وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان .

قد يكون فيما فعله ثعلبة من عرض الصدقة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد سبق امتناعه من أدائها ثم عرضها على خلفائه ما يدل على التوبة ، وقد يكون فى رفضها معنى الإهانة له ليعتبر غيره به فلا يمتنع عن الصدقات ، وقد يكون إتيانه بالصدقة كان على وجه الرياء لا على وجه الإخلاص ولذلك لم يقبلها النبى عليه السلام ، ولكن الذى لا ريبة فيه أن الله تعالى قال فى شأنه «فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون» . وهذا يدل على مبلغ الخطر الذى يحيط بالشخص المستهتر الذى يسدر فى جهالات

الـكذب ونقض العهد وغير ذلك من الصفات الذميمة إذ يوشك أن تمتـــد فى نفسه جذور الاثم وتعقب فى قلبه أدران النفاق .

الارتباط بين الظاهر والباطن وأهمية حال القلب

والارتباط بين الباطن والظاهر أمر لاشك فيه ؛ ولهذا شرعت العبادات أدوات تقوم فيها الجوارح بأعمال معينة فينصلح بأدائها حال القلب .

والواقع أن القلب يتأثر بجميع الأعمال التى تأتيها الجوارح من خير أو شر . وفى ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء ، وإن الرجل ليكذب الـكذبة فيسود قلبه » وعن أبى هريرة رضى الله عنه « ان الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فإن هو تاب صقل قلبه » وهذا هو الرين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » وقال صـــلى الله عليه وسلم « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » ـ وروى الإمام احمد

فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة : قلب أجرد مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافرين . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر . وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلب على الأخرى غلب عليه » .

كذلك روى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً . فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب

من هواه ، وقلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض (*)

عودا عودا :— أى تعاد وتكرر . ورديت عوذا عوذا ومعناها سؤال الاستعاذة منها

كالحصير :— كما ينسج الحصير عودا عودا — فشبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحدا بعد واحد

أشربها :— دخلت فيه دخولا تاما وحلت منه محل الشراب

نكتت نكتة :— نقطت نقطة — وكل نقطة فى شىء بخلاف لونه فهو نكت

مرباد :— وفى لغة أخرى مربئد ويقال اربأد ومربئد والربده شىء من بياض يسير يخالط السواد

كالكوز مجخيا :— مائلا أى قلب نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة أى كالكوز المنحرف الذى لا يثبت الماء فيه

وقد ذهب علماء الغرب الى أنهم وصلوا فى أبحاثهم الواسعة عن أعماق النفس الانسانية الى معرفة الكثير من كنهها فكان ما وصلوا اليه جزءاً صغيراً من هذا الهـــدى النبوى الكريم فقالوا إن النشاط النفسانى يتكون فى الانسان من عنصرين : أحدهما خارجى Objective ارادى يعمل دائماً باحتياط والثانى ذاتى subjective . وأطلقوا على الأول اسم الشعور أو العقل الواعى وعلى الثانى اللاشعور أو العقل الباطن وأدرجوا تحت الأول قوى التمييز والحكم والتفكير وهى التى بواســطتها نحس بوجود أنفسنا وبأننا كائنات وأشياء . كما قالوا أن الثانى وهو العقل الباطن يعمل ولا نشعر بوجوده وأن من مظاهره الذاكرة والعاطفة والمخيلة . وقالوا إن اللاشعور يجمع الأحاسيس التى نحس بها ويسجل الأفكار التى تتوارد علينا ودقائق ما نشعر به كل الى ما يشبهه ثم هو لا يكتفى بالاحتفـــاظ بها ولكنه

يذكرنا بها تحت تأثير الأفكار المشابهة أو المقارنة كما ينضج فى أعماقه الأهواء والميول والدوافع وكما تختزن فيه الصور والافكار والعواطف والانفعالات على الأيام والشهور والسنين حتى تتكون منها عقد نفسية تدفع الى التسامى أو الى الانكفاء .

وقد ابتدعوا عن طريق هذه الأبحاث المستفيضة طرائق لتربية النفس وتقوية العوامل التي يمكن للانسان أن يستعملها عمداً للتأثير على نفسه أو على غيره أو على الحوادث التى تهمه ابتغاء الوصول لأغراض معينة منها (١) تنظيم قوى الانفعال والحساسية والعاطفة والاندفاع والمخيلة والذاكرة وجميع المظاهر اللاشعورية ووضعها تحت رقابة قوى التمييز والحكم والارادة . و (٢) للقدرة على التأثير على الغير أو التخلص من التأثير عليه (٣) وللحصول على أكبر قسط من النجاح وتوسيع مدى الادراك والذكاء .

وللوصول الى هذه الأغراض رتبت طرائق معينة من أهمها الاستهواء وضبط النفس ووضعت لذلك قوانين دقيقة أساسها أن كل فكرة يطول تدبرها ينشأ عنها فى النفس تصور معين ينطبق عليه قانون ارتباط المعنوية بالمادية وهذه تعمل فى الانسان تبعاً لقانون التسلسل الفكرى وتحدث تغيراً كبيراً أو صغيراً فى الميول والرغبات ينطبع في اللاشعور وبذلك يمكن إدخال الفكرة اللازمة لاحداث التغيير الذي يراد إحداثه وهذا يدعو الى الجمع بين فكرة إمكان إحداث التغيير المرغوب وفكرة ضرورة بذل الجهد لاحداثه وفكرة احداثه فعلا وبهذا تكون الفكرة فى جميع الأحوال من أعظم القوى.

وقد وجد علماء الفسيولوجيا (وظائف الاعضاء) برهاناً عملياً على قوة الفكر فى مسائل التنويم المغناطيسى وخاصة فى إحداث الجروح بمجرد الايحاء وتغيير تكوين الدم بالانفعالات الشديدة وهكذا يقرر رجال علم النفس أهمية الدور الذى تقوم به الافكار وهو يطابق ما يقرره رجال التصوف وأصحاب مذاهب

التجرد المنتشرين فى الهند والتبت والصين وغيرها كالراجايوجا واللاميين والثيوصوفيين وجميعها تثبت وجود التضامن الدقيق بين المادية والمعنوية — وقد رتبوا على هذا التضامن نتائج عديدة منها أن التغذية المفرطة معناها تقييد القوة العامة العضوية لأنها تتطلب نشاطاً زائداً من القوة العصبية للجهاز الهضمى أى انهاك هذه القوة وبالتالى يزدحم الجسم بالسموم والفضلات وهذا من شأنه الاخلال بنظام الجسم فكان من معجزات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن رفض الطبيب قائلا إنا قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع. ومن ذلك أيضاً أنهم قرروا وجوب تغليب القوة العاقلة على غيرها ليمكن الانتفاع بذلك عن طريق مطابقة التوازن بين قوى النفس الارادية وبين الجسم وتنظيم الوظائف المادية المعتمدة مباشرة على الارادة وقد ثبت بطريق القطع أن الاستهواء الذاتى له أثر كبير على القوة النفسية وأن له السيطرة الكبرى على النفس. وإن الباحث

أنواع القلوب

وقد ورد فى القرآن مايفيد تقسيم القلوب الى ثلاثة أقسام : (١) قلب سليم وهو القلب الذى سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه قال تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء ٨٨، ٨٩) (٢) وقلب ميت وهو الذى لا يعرف ربه ولا يعبده ولا يبالى اذا فاز بشهواته وحظوظه رضى ربه أو سخط (٣) وقلب مريض وهو القلب الذى له حياة وبه علة . ففيه من محبة الله تعالى والايمان به والاخلاص له ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها كالحسد والكبر وحب العلو والفساد والرئاسة ماهو مادة هلاكه . وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه القلوب الثلاثة فى قوله تعالى « وما أرسلنا

المدقق ليرى فى العبادات وخاصة فى الصلاة والصوم مجموعة منظمة أبدع نظام لطرائق تهذيب النفس وتربيتها مقدرة أعظم تقدير للقوى المادية وعلاقتها بالقوى غير المادية الكائنة فى الانسان هذا العالم الأصغر ذلك تقدير العزيز العليم .

من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم » . (الحج ٥٢، ٥٣، ٥٤)

مرض القلب وعلامة ذلك في القرآن وقد وصف المنافقون مراراً في القرآن بمرض القلب على اعتبار - أن هذا الوصف كما يشمل المنافقين فانه يشمل من المؤمنين من يترددون بين الطاعة والمعصية . ويستفاد ذلك من إضافتهم الى المنافقين في مواضع كثيرة قال تعالى « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » (الانفال ٤٩) « لئن لم ينته المنافقون

والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » (الأحزاب ٦٠،٦١)

« وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » (الاحزاب ١٢) على أنه ورد ذكر مرض القلب فى آيات أخرى للدلالة على المنافقين وحدهم وذلك كما فى قوله تعالى فى وصف المنافقين « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (البقرة ١٠) « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادهم رجسا الى رجسهم » (براءة ١٢٥) (أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا) (النور ٥٠) (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض ألن يخرج الله أضغانهم) (القتال ٢٩)

على أنه مهما يكن مدلول مرض القلب فان القلب هو مناط النفاق كما هو مناط الايمان وهو سر من الاسرار التى لا يعلم حقيقتها ولا يحيط بمكنونها إلا الله تعالى . وهو الى جانب ذلك

شديد التقلب والتغير تتردد علية الخواطر وتتوارد عليه النزعات روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى قال « مثل القلب ريشة تقلبها الرياح بفلاة » ولهذا المعنى قال الله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ،، (الانفال ٢٤) ولهذا أيضاً كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى صلاته « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » ولهذا كان تمييز المنافقين على وجه القطع ومعاملتهم والحكم عليهم أمراً غير ميسور ولا مستطاع فترك الأمر بمعاملتهم بمقتضى الظاهر . كما تركت لهم الفرصة لاصلاح شأنهم - وصاروا أمثلة حية تقضى بضرورة التباعد عن مزالق النفاق ومواطن الريبة .

والقلب وإن دل على ذلك العضو من البدن الذى يقبض الدم من الاوردة فينشره على الرئتين لتطهيره ثم يقبضه من الرئتين بعد تطهيره فيبسطه فى الشرايين الى كافة البدن إلا أنه يدل أيضاً على لطيفة غير متجسمة هى عنصر الحياة الاول وإليها ترجع كل

عقائد الانسان وما يفعله من خير أو شر . وفى علاقة القلب مع العقل والنفس والروح وتعريف كل منها وتمييزه استغرق الفلاسفة والعلماء منذ الازمان السحيقة فى القدم فى التفكير وتشعبت نظرياتهم ـ كما ذكر أصحاب العلوم الظلمانية فى تفصيل تكوين الانسان من حيث عناصره المادية وغير المادية تفصيلات كثيرة وأسماء عديدة ذكر بعضهم منها القلب كما ذكر بعضهم أسماء أخرى . وليس هنا مجال تفصيل لذلك وإنما نذكر أن القرآن الكريم نسب الى القلب الاعمال الصالحة والفاسدة كما نسب اليه الكفر ووصف القلب تارة بالسلام وأخرى بالقسوة والموت وطورا بالمرض .

ولا شك أن الكذب والنفاق والخيانة أشد الاخطار على النفس الانسانية ، وأعسر أمراضها علاجاً ، قال تعالى : (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الصدق يهدى الى البر ، وإن البر يهدى الى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى

يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى الى الفجور ، وإن الفجور يهدى الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

انتشار الكذب

ومع ذلك فانا لنرى الآن بأعيننا ونسمع بآذاننا سطوة الكذب وشهرته حتى لم يترك طبقة ولا صنعة إلا وذاع فيها أمره ، وطرق البيوت وتشعب بين أفراد الاسرة كما تفشى بين الجماعات وإن الأب والأم ليداعبان أطفالهم بالكذب فكاهة وملحة . ثم اعتبر الكذب فوق ذلك من ضروريات الحياة ، فالتاجر والصانع يرون أن بضاعتهم تكسد إذا لم تروجها الأيمان الكاذبة وغيرهم يدسون الكذب أفانين ويعتبرون تارك الكذب من أصحاب الغفلة ويقيسون مقدار الذكاء بدقة التفنن فيه ولا يخجلون إذا ما انكشف الأمر ، وقد يتعلل البعض بأقوال من إيحاء الشيطان أيسرها أن الكذب للمصلحة جائز . ولم ينج من هذا المرض غنى ولا فقير ولا عظيم ولا حقير : يستعمل الغنى والوجيه الكذب للتهديد والتهويل ـ

ويستعمله الفقير والصغير للمكر والخداع والتملص من جبروت الأغنياء والزعماء وخاصة الاطناب فى المدح والأغراق فى الاشادة بفضل من لا يستحق إلا الاهانة واللعن — وغير ذلك فى هذا الشأن كثير متشعب الأطراف . وليس نصيب الامانة بأحسن من نصيب الكذب . فقد أخذت الخيانة بالقلوب والعقول وتفتقت لها الاذهان والحيل وكل ذلك أزاح الايمان عن موضعه وأشغله محله . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات كان ينظر من وراء الغيب الى مانحن فيه قال صاحب سره حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فيما يرويه مسلم حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الامانة قال « ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (الأثر اليسير) ثم ينام النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل (أن يكون بين الجلد واللحم ماء) كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منبترا

(مرتفعاً) وليس فيه شيء - ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان - ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردن على دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

وهكذا أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يبعد أمته عن أشد الأمراض الاجتماعية خطراً على المجتمع وعلى النفس إذ تهوى بها الى خصائص النفاق .

معرفة كثير من المنافقين

أما المنافقون فان الكثير منهم كان معروفاً للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وكان ينزل على الرسول بين آن وآخر ما ينبئه بأخبارهم . قال أبو بكر الأصم : « إن قوماً من المنافقين اصطلحوا على كيد فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض

فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره به فقال صلى الله عليه وسلم : « إن قوماً دخلوا يريدون أمراً لاينالونه فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم فلم يقوموا فقال ألا تقومون ؟ فلم يفعلوا فقال صلى الله عليه وسلم قم يا فلان قم يا فلان حتى عد اثنى عشر رجلا منهم فقاموا وقالوا كنا عزمنا على ماقلت ونحن نتوب الى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا فقال الآن اخرجوا أنا كنت فى بدء الأمر أقرب الى الاستغفار وكان الله أقرب إلى الاجابة اخرجوا عنى فنزل فى ذلك قول الله تعالى :

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »

النساء ٦٤

كذلك عرف النبى عليه السلام عصابة المنافقين الذين تآمروا عليه ليلة العقبة عند عودته من تبوك واستكتم أمرهم صاحب سره حذيفة اليمان رضى الله عنه ، حتى قيل إنه علم من النبى صلى الله عليه وسلم جميع أمر المنافقين وحتى إن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه كان يدعو فى خلافته حذيفة ابن اليمان للاشتراك معه فى الصلاة على موتى المؤمنين فاذا امتنع حذيفة من الصلاة علم عمر أن المتوفى منافق فترك الصلاة عليه عملا بقول الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره).

وقد روى أكثر من ذلك أن أسماء المنافقين ذكرت فى القرآن ثم حذفت وأرى أن هذه مبالغة من أصحاب هذا القول لأن نصوص القرآن واضحة وصريحة أن الله تعالى جعل النفاق موضعاً للاختبار والابتلاء والنظر ، يدل على ذلك قوله تعالى :

« وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (براءة ١٠١)

« ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول » (القتال ٣٠) وهذا يدل دلالة قاطعة أن الله تعالى لم يظهر ضمائر المنافقين ولم يبرز أسرارهم لأن مشيئته اقتضت ذلك

تقريراً للمبدأ العام الذى سنه الله فى خلقه وهو اختصاصه تعالى بالضمائر وأسرار القلوب وهو تعالى لا يكلف النفوس إلا وسعها وإنما وضع كثيراً من الطرائق لامتحان القلوب وجعلها محلا للنظر والتدبر واستعمال الفكر واكتساب العلم قال الله تعالى

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الله الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) كذلك ترك السبيل مفتوحا للمنافق أن يصلح سريرته ويصدق فى إيمانه قبل أن تنهتك أسراره ويفتضح أمره — وما كان المنافقون يخلون فى أكثر أوقاتهم من تهتك أستار البعض منهم وكشف أسرارهم . وقد توعدهم الله فى القرآن بذلك فقال : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزئوا ، إن الله مخرج ما تحذرون » (براءة ٦٤) (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) (براءة ١٢٦)

المنافقون لم يكونوا على درجة واحدة فى النفاق

على أن المنافقين لم يكونوا على درجة واحدة من النفاق فنهم من كان أمره مكشوفاً كعبد الله بن أبي ومعتب بن قشير ، وكانت أعمالهم تنم عن داخل نفوسهم بسهولة وبدون عناء . ولكن كثيراً منهم كان أعمق نفساً وأكثر تفنناً فاتخذوا النفاق حرفة وصاروا فيه أساتذة فلم يستطع أحد أن يعلم حقيقة أمرهم حتى الرسول عليه السلام يدل على ذلك قوله تعالى (لا تعلمهم نحن نعلمهم) (براءة ١٠١)

وقد كان هذا الصنف من أشد الأصناف خطراً حيث كان يعمد إلى أفعال الأذى فى الخفاء يقصد بها النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وحيث كان يمتهن أخطر أنواع الجاسوسية وينقل أخبار المسلمين إلى أعدائهم. وأغراهم ما كان يعاملهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يجرى أمرهم على الظاهر ولا يبالغ فى التفتيش عن بواطنهم ولا يسعى فى هتك أسرارهم ، فادعوا أن الرسول عليه السلام أذن وقالوا ما هذا الرجل إلا أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له . وقد روى عن ابن

عباس رضى الله عنهما أن جماعة من المنافقين ذكروا النبى صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغى من القول فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما نقول فقال الجلاس بن سويد بل نقول ماشئنا ثم نذهب إليه ونحلف أنا ما قلنا فيقبل قولنا وإنما محمد أذن سامعة . كذلك أورد ابن هشام والحلبي أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عن رجل من بنى عمرو بن عوف من الخزرج يدعى نبتل بن الحرث ، يجلس إليك رجل أدلم ثائر شعر الرأس أسفع الخدين أحمر العينين كأنهما قدران من صفر ، كبده أغلظ من كبد الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره»(*) وقد أنزل الله تعالى فى هذا الشأن

(*) الأدلم : الأسود الطويل أو المسترخى الشفتين

ثائر شعر الرأس : أى مرتفعه منتشره

السفعه : حمره تضرب للسواد

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقـولون هو أذن ، قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسـول الله لهم عـذاب أليم) .
(براءة ٦١)

على أن هذا لا يمنع أن كثيراً من المنافقين لم يعلم عنهم شيء لأنهم اكتفوا باظهار الإيمان تقية من القتل ولم يقوموا بأى عمل إيجابى ضد المسلمين .

البـــاب الثالث

معاملة المنافقين

أهمية البحث قد تكون معاملة المنافقين من أهم الموضوعات التى تتعلق بهـذا البحث . فالنفاق يتدرج فى دركاته وقد يكون تافها قاصراً على الاختفاء بالسريرة تقية من القتل ولـكن أوائل الشر تطلب أواخره فتزداد شرته حتى يكون الجاسوسية الخطرة التى من شأنها قلب الانظمة والأوضاع وإدخال الفشل وإيقاد الفتن

الجاسوسية فى الحرب والسلم ومقاومتها فى العصر الحاضر وإنا لنرى الآن بأعيننا ونسمع بآذاننا ما هى طرق الجاسوسية فى أعمـال الحرب والسلم . ونعلم كثيراً أو قليلا عما تقوم به ما تسمى أقلام المخابرات السرية بين الدول فى الحرب والسلم والوسائل الشاذة

التى تتخذها للوصول إلى أغراضها دون مبالاة بشىء من خلق أو فضيلة ولا تتوانى عن ارتكاب أفظع الجرائم وأقسى الأفعال وإلى جانب ذلك تفـنن واسع فى ضروب الدعاية حتى انتهى الأمر إلى استمرار الحرب الخفية بين تلك الأقلام لاتهدأ نارها ولو وضعت الحرب الظاهرة أوزارها

والواقع أن مقاومة النفاق بصفة عامة والجاسوسية بصفة خاصة يحتاج إلى شىء كثير من الذكاء والحصافة وحدة الرأى . والذى نشاهده على وجه العموم أن القاعدة الأساسية فى مقاومة النفاق ليست هى الأخذ بأول الظن وإنما هى التلطف والاستدراج للالمام بما يدبره العدو وبدقائق كيده ثم تكون المقاومة منصبة على إفساد التدبير وإحباط الكيد وفى هذا ما فيه من إنهاك الروح المعنوية

أما اذا انكشف أمر الجاسوس وظهر خطره سافراً الى العيان فان الموقف يتغير كل التغير ولا يبقى هناك محل للتلطف والاستدراج وانما جزاءه القتل أو العقوبة الشديدة التى تقيده وتجرده من القدرة على أى عمل

علاج النفاق ذلك مايجرى عليه العمل الآن بين الدول والحكومات وهو علاج النفاق بالنفاق ثم هو عداوة سافرة وعقوبة لارحمة فيها إذا انكشف الأمر فأما فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اختلف الأمر عن ذلك اختلافا كبيراً فالرسول الكريم كان أبعد الناس عن حب الانتقام والأخذ بالثأر وهو الذى صبر أكبر الصبر على أذى المشركين وأعوانهم واشتد الأذى حتى أغروا به السفهاء والعبيد يسبونه ويصيحون به وقذفوه بالحجاره حتى دميت قدماه فدعا الله أن يهديهم وقال اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون. ووصفه الله تعالى فى كتابه العزيز فقال « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ولهذا لم يعالج الرسول عليه الصلاة والسلام النفاق بالنفاق. فالنفاق خلق ذميم ، وهو أشد مايكون بعداً عن الرسول الكريم. وكان الى جانب ذلك أشد الناس ذكاء وحصافة مؤيداً بالمعجزات وتجلت صفاته الباهرة فى معاملته لهذا الصنف من الناس

أقسام الناس حسب ظاهر العقيدة ولقد انقسم الناس حسب

العقيدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أربعة أقسام «١» مؤمنون «٢» وكفار محاربون «٣» ومؤمنون من غير عقد الجزية أى أن النبي صلى الله عليه وسلم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على أنفسهم وأموالهم «٤» وأهل ذمة وهم الذين عقدت لهم الجزية

أما انقسامهم حسب باطن عقيدتهم، فهو التقسيم الذى اورده الله تعالى فى أول التنزيل، أى الى مؤمنين وكفار ومنافقين.

القاعدة الاساسية فى معاملة المنافقين

والقاعدة الأساسية التى اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع شأن المنافقين وأحوالهم كانت تتلخص فى معاملتهم حسب ظاهرهم فكان يجرى أمرهم على هذا الظاهر ولا يبالغ فى التفتيش عن بواطنهم ولا يسعى فى هتك أستارهم، وكان يقول إن الله تعالى يتولى السرائر. وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تولى الله

تلك السرائر المريضة فأخرج أضغانها وأهلكتها أحقادها .. وكان ذلك سبباً أن أمعنوا فى النفاق ورموا النبى صلى الله عليه وسلم بأنه أذن أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور ، وأنه سريع الاغترار بكل ما يسمع ، وصحح الله الوصف بقوله تعالى « قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم » .

ولقد انكشف أمر كثير من المنافقين فى الحروب وغير الحروب وخاصة فيما قام به ابن أبى من القبائح فى غزوة أحد وبنى المصطلق وتبوك ونزل فى شأنه كثير من الآيات التى فضحت اعماله حتى عرض ابنه على النبى صلى الله عليه وسلم أن يقتل أباه فأبى ذلك ماضياً فى الطريق التى ارتسمها معه ومع أمثاله المنافقين دون أن يخصص أو يجند لهم فرقة لمقاومتهم والتجسس عليهم واتخاذ النفاق لكشف أستارهم

هذه القاعدة الأساسية التى عومل بها المنافقون هى القاعدة التى لا مناص من الأخذ بها فى هذا الموضوع لأنها القاعدة

الوحيدة التى تتفق مع العقل والمنطق السليم . ومناطها ان العلم بحقيقة السرائر يستحيل على العقل البشرى الجزم به . وانما العلم بها على حقيقتها عندالله وحده . ولهذا السبب لا يمكن أن يترتب على مجرد الظن حكم شرعى. صحيح أن بعض الأحداث قد تكشف الكثير من مكنونات القلوب ويتميز بها الخبيث من الطيب ، ولكنها لا تؤدى الى القطع بمكنون النفس ، وخاصة فيما يتعلق بالحكم على انسان بالإيمان أو الكفر الا اذا كانت الأحداث فى ذاتها مما يترتب عليه حكم من الأحكام

النهى عن الحكم بالظن وقد ورد فى كتاب الله وهدى رسوله زجر شديد لمن رأى أن يرتب الأحكام على الظن . فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال « السلام عليكم » فقتلوه وأخذوا غنيمته فأنزل الله فى ذلك (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك

كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، إن الله كان بما تعملون خبيرا . .) (النساء ٩٤)

فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديته الى أهله ورد عليه غنيماته — وقد روى أكثر كتاب السير أن القاتل كان محلم بن جثامة وأن المقتول عامر بن الأضبط وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على محلم فما عاش بعد ذلك الا سبعاً ثم دفن فلم تقبله الأرض ثم دفن فلم تقبله ثم دفن ثالثا فلم تقبله ، فلما رأوا أن الأرض لا تقبله ألقوه فى بعض تلك الشعاب ، وقال النبي عليه السلام ان الأرض لتقبل من هو شر منه وفسر الحسن البصرى بأن عدم قبول الأرض له كان وعظا للقوم حتى لا يعودوا لمثل ذلك .

وروى ابن ماجة عن عمران بن حصين قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين الى المشركين فقاتلوهم قتالا شديدا فمنحوهم أكتافهم فحمل رجل من لحمتى على رجل من المشركين بالرمح فلما غشيه قال أشهد ألا إله إلا الله إنى مسلم فطعنه فقتله

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت قال وما الذى صنعت مرة أو مرتين فأخبره بالذى صنع فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما فى قلبه فقال يارسول الله لو شققت عن بطنه أ كنت أعلم ما فى قلبه قال لا فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه . ثم سكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلبث يسيراً حتى مات فدفناه فأصبح على وجه الأرض فقلنا لعل عدواً نبشه فدفناه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه فأصبح على ظهر الأرض فقلنا لعل الغلمان نعسوا فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح على ظهر الأرض فألقيناه فى بعض تلك الشعاب

ويتضح من هذه القصة فى جلاء لا يتطرق اليه الشك أن القلوب أمرها مغلق لا يعلمه إلا الله ، وكان فى تعبير الرسول الكريم عن استحالة الاطلاع على القلوب أكبر العظة والعبرة

السبب فى عدم قتل المنافقين وآراء الائمة فى ذلك وقد نشأ بين الفقهاء فى هذا الصدد مسألة علمية فقهية كانت موضعا لكثير من النقاش والجدل بين الأئمة وهذه المسألة هى تفصيل السبب الذى من أجله

مسك النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم .

قال الإمام مالك رحمه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم فيقتل الزنديق إذا شهد عليه دون استتابة وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يشهد أحد على المنافقين — وقد نقل فى ذلك أنه لم يشهد على عبد الله بن أبى إلا زيد بن أرقم وحده ، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه ، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقد رد على ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام حكم بقتل الحارث بن سويد لأنه قتل المجذر بن زياد غيلة فى موقعة أحد أخذاً بالثأر لأن المجذر قتل أباه سويدا يوم بعاث. وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاغتيال أعلمه به جبريل عليه السلام وقضى بقتل الحارث لهذا العلم . كذلك رد عليه بأن قاعدة أن القاضى لا يحكم بعلمه إنما يستند على الاجماع ، والاجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد النبى صلى الله عليه وسلم وانقطاع

الوحى ، وإذن فلم يكن هذا سببا فى امتناعه صلى الله عليه وسلم
من قتلهم وخاصة أنه قال فى صراحة واضحة لا تحتمل التأويل
إنه إنما يحكم بالظاهر وأن الله تعالى يتولى السرائر . وقد عرض
عمر رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأذن فى قتل
ابن أبى فكان رده « ترعد له إذن أنف كثيرة بيثرب ، ثم كيف
إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه» . كذلك عرض أسيد
ابن حضير رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم أن يقتل
المتآمرين عليه فى العقبة عند عودتهم من تبوك فقال صلى الله
عليه وسلم انى أكره أن يقول الناس ان محمداً قاتل بقوم حتى
اذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم . فقال يارسول الله
هؤلاء ليسوا بأصحاب فقال رسول الله أليس يظهرون الشهادة ؟
وهذا يدل دلالة واضحة أن الامتناع عن قتلهم كان سياسة
حكيمة أطفأت نار الفتنة كلما حاولت أن تستعر

وللشافعى رأيان الأول موافق لرأى الامام مالك والثانى هو
أن من شهد علية بالزندقة فجحد وأعلن الايمان وتبرأ من كل دين
سوى الاسلام أن ذلك يمنع من اراقة دمه . وقد وافقه على

هذا الرأى الامام أبو حنيفة وأصحابه والامام احمد بن حنبل ،
وقال الطبرى فى الموافقة على هذا الرأى أن الله تعالى جعل
الأحكام بين عباده على الظاهر وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد
من خلقه فليس لأحد أن يحكم بخلاف ماظهر لأنه حكم بالظنون
ولو كان ذلك لأحد لكان أولى الناس به رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا
ووكل سرائرهم الى الله . وقد كذب الله ظاهرهم بقوله « والله
يشهد إن المنافقين لكاذبون » وانما يلاحظ أن الآية الكريمة
لم تعين أشخاص المنافقين وجاءت بحكم عام فيه توبيخ لكل
مغموص عليه بالنفاق وبقى لكل واحد منهم أن يقول انى لست
المقصود منها وما أنا إلا مؤمن .

وهناك رأى لأصحاب الشافعى وهو أن النبى صلى الله عليه
وسلم لم يقتل المنافقين لأن الزنديق الذى يسر الكفر ويظهر
الإيمان يستتاب ولا يقتل — وقد رد على ذلك أن النبى عليه الصلاة
والسلام لم يستتبهم بل كان معرضاً عنهم مع علمه بهم وليست

استتابة الزنديق واجبة . والواقع أن هذا الرأى لا يؤدى الى أى نتيجة لأن الاستتابة على فرض حصولها لا ينتهى أمرها إلا إلى أمر واحد وهو إظهار التوبة إمعاناً فى النفاق والتضليل .

معنى الزندقة

والملاحظ من مراجعة هذه الأقوال أن الفقهاء قد استعملوا فى هذا الصدد لفظ الزندقة وجعلوها مرادف النفاق . واعتبر الامام مالك رحمه الله أن النفاق كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط وأن الذى يقابله بعد ذلك العهد هو الزندقة وإذا رجعنا إلى هذا اللفظ ومدلوله وجدناه لفظاً عاماً يدل على ضروب كثيرة من الكفر منها النفاق ولم يستعمل هذا اللفظ إلا بعد فتح بلاد فارس والروم والهند واتصال المسلمين بأصحاب هذه البلاد وأهليها . وقد كان بهذه البلاد ديانات عديدة شملت عقائد مختلفة أسست على قواعد راسخة من الخيال والميثولوجيا (الخرافات) لا تمت إلى الحقائق بسبب وليس فيها من الحق إلا النزر النادر اليسير . ومثال ذلك

الديانات الثنوية والجرسية والبرهمية والمانوية والمزدكية والصابئة (*).

(*) الديانات الثنوية فرق من الكفار يزعمون أن للعالم إلهين إله للنور إسمه يزدان وإله الظلمه واسمه أهرمن وأن الأول اله الخير والثانى إله الشر — وهذه الديانات فرق وطوائف منها المانويه والمزدكيه والزرادشتيه ثم المامونيه والديصانيه — وكلها ديانات وثنية مليئة بالعقائد الخرافية زعم أصحابها أن المعبودات قسمان منبثقان من أصلين أزليين أحدهما فاعل للخير، والثانى فاعل للشر وزعموا أن فاعل الخير أدنى من فاعل الشر وإن الأول سينتصر على الثانى انتصاراً تاماً. ويلاحظ أن هذا المذهب الخرافى انتقل الى كثير من البلاد بصور مختلفة بين الأمم القديمة حتى أن فلاسفة اليونان كرروا ذلك وقالوا أن المقصود هو تقرير الشر وايضاح تركيب العالم وبقائه وان الاصلين هما الروح والعقل وان الروح هى المبدأ للفاعل وأنه لولا الماده لم يكن لهذا الروح ان يخلق العالم كما ذهب أفلاطون وأصحاب مذهب الرواقيين أن

دوام المادة هو سبب الشر .

اما البراهمة فديانة منسوبة الى برهم معبود الهند الاول وهو عندهم أصل الموجودات وانه واحد ازلى مطلق غير متغير ولا مدرك ، سابق لكل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ماأراد دفعة واحدة بقوله أوم أى كن — وقالوا ان برهم هذا عبارة عن تشخيص لجميع القوى الباطنة والظاهرة فى الانسان وفى جميع العالم مجتمعة فى فرد مستمر زمناً طويلا على حالة واحدة ثم يجعلون من هذا الفرد اسماً للاقانيم الثلاثة التى يتألف منها ثالوث الهنود وهى برهما ووشنو وسيوا ويزعمون ان الكائنات الاولى ولدت من اتحاد النور الذى تولد من برهم المسمى مارتشى الذى اتحد مع الخلاء المسمى فاسيابا — ولأصحاب هذه الديانة تفاصيل كثيرة عن برهما وكيف ينبثق فى نفسه فى الاقانيم الثلاثة ثم يروون قصصاً طويلة عن عجبه وكبريائه وزواجه ومساعديه وأولاده وغضبه وخصامه مع اولاده ونسله وكلها على طولها وتشعبها منشورة فى كتبهم وخصوصاً كتابهم المقدس المسمى فيداس وهو لايزيد فى هذا الشأن عن خرافات مستغرقة فى الخيال والكفر .

وكلمة زنديق فارسية معربة اختلف فى أصلها فقيل «١» إنها معربة عن زنده نسبة الى زند وهو كتاب أظهره مزدك صاحب الديانة المزدكية وهى إحدى الديانات الثنوية فى زمن كسرى قباذ فنسب إليها أصحابه وهى ديانة تشبه فى مبادئها ما يسمى بالشيوعية فى العصر الحاضر إذ أنه يبيح الاشتراك فى المال والنساء كاشتراك الناس فى الماء والكلأ . وقيل «٢» إنه معرب عن زندا وهو دين المجوس . وقيل «٣» انه معرب عن الكلمة الفارسية زين دين أى صاحب الدين إشارة الى من يعتقد بديانة زراوشت .

وقد اختلف فى تعريف الزنديق فقيل «١» إنه الثنوى القائل بوجود خالقين إله النور يزدان وإله الظلمة أهرمن وأن الأول إله الخير ، والثانى إله الشر . وقيل «٢» إن الزنديق من لا يؤمن بالله والربوبية وينكر وجود البارى، جل شأنه ، أو

من يدعى أن له شريكا أو ينكر حكمته — قال ابن الراوندى :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة
وصير العالم النحرير زنديقا

وقيل أيضاً «٣» إن الزنديق هو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وفى هذا قيل :

بغداد دار لأهل المال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشى فى أزقتها
كأننى مصحف فى بيت زنديق

وقيل أيضاً «٤» إن الزنديق من لا يتدين بدين أصلا . ومن هذا يضح أن كلمة زنديق استعملت استعمالا واسعاً بحيث شملت الكافر المجاهر بالكفر كما شملت المنافق . وقد قسم الفقهاء الحكم

على الزنديق بصفة عامة إلى وجهين أولهما أن يكون كافراً فى الأصل وحكمه أن يترك على كفره إلا إن كان محارباً . والثانى أن يكون مسلما فتزندق فأنه يعتبر مرتداً ويقتل على التفصيل السابق ايراده . وقد ألحق بالزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان .

تشعب الفرق والزندقة

وهذا الوضع إنما أتى من الاشكالات المتشعبة التى عرضت للمسلمين بعد أن فتحوا بلاد فارس والروم والهند فقد كان أصحاب هذه البلاد يدينون بديانات مختلفة معتمدة على الخرافات ولكن وضع لها أوضاع فلسفية منمقة يسهل بها إدخال الفتن على ضعاف العقول ، ويضاف الى ذلك أن كثيراً من أهل تلك البلاد دخلوا فى دين الاسلام إن صدقا وإن كذباً ، وما زالت العقائد التى كانوا يدينون بها محتشدة فى رؤوسهم . فعمد بعضهم الى اعتناق الدين الاسلامى ، ولكنه لم يستطع أن ينبذ جميع عقائد الكفر وحاول أن يدخلها على الاسلام أو يوفق بينها وبين مبادئه . كما أن البعض الآخر لم

يدخل فى الاسلام إلا رياء وتضليلا ، وعمد الى إدخال الزيف على العقائد الاسلامية وصبغ الزيف بالأوضاع الفلسفية المزيفة المعقدة ، ونتج عن ذلك أن تكون عدد كبير من الفرق واشتغل العلماء والفقهاء فى جميع العصور التى تلت ذلك ببحث هذه العقائد وتمحيصها ونفى الزيغ منها وتفنيد فلسفاتها ، وأطلق لفظ الزندقة على جميع المذاهب والفرق التى تتعارض مع أصول الدين الاسلامى ، وألحق بها من يبطن الكفر ويظهر الايمان .

أشكال النفاق بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والواقع أن النفاق قد افتتح بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم صحفاً جديدة واتخذ أشكالا واسعة ، وقد كان فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم محصوراً فى جزيرة العرب بل فى المدينة والبوادى التى حولها . فما إن اتسعت رقعة الاسلام بالفتوحات حتى اتسعت دوائر النفاق وتكاثرت شياطينه فى كل مكان ، واتخذ من الصور أشكالا لايعدها الحصر ، ودخل فى الخلافة والسياسة والحروب ، كما دخل فى العقائد والفقه والتشريع وغير ذلك ، وتعمق أصحابه

فى التفنن والابتداع حتى وضعوا الأحاديث المكذوبة ونسبوها للنبى صلى الله عليه وسلم وأدخلوا فى الدين ما ليس منه ، ولا تزال آثار هذا النفاق تملأ الكتب كما تملأ النفوس . وتفصيل ذلك خارج عن موضوع هذا الكتاب . وإنما يهمنا هنا أن نشير فقط أن الزندقة كما تشمل النفاق فانها تشمل ضروباً أخرى من الكفر ، وليس هناك ما يلزم قصر النفاق على عهد رسول الله عليه السلام . وقد اتخذ عمر رضى الله عنه فى معاملة المنافقين إبان خلافته بقوله : أيها الناس إن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر خيراً أمناه وقربناه ، وليس لنا من سريرته ، الله يحاسبه فى سريرته ومن أظهر سوءاً لم نؤمنه ولم تصدقه ، وإن قال إن سريرته حسنة .

ملخص آراء الأئمة

وإذا راجعنا آراء الأئمة الاربعة فيما يتعلق بالحكم على المنافق أو كما أطلق عليه اسم الزنديق نرى أن حكم الأئمة الثلاثة أبو حنيفة والشافعى وأحمد يؤول الى عدم

قتل المنافق والاعراض عنه وهو ما جرى عليه الأمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى يقتضى أن الحكم إنما يكون طبقاً للظاهر وأن الله تعالى هو الذى يتولى السرائر . ولقد حاول ابن أبى محاولات كثيرة للقضاء على النبي عليه السلام وعلى المسلمين وانكشف أمره فى أغلب محاولاته ، وآذى النبي عليه السلام إيذاء بالغاً وصل الى حد الطعن فى عرض زوجه المكريمة فما عمد النبي صلى الله عليه وسلم الى الانتقام ومرت الزوابع التى أثارها ابن أبى بالسلام والظفر للمؤمنين ، وأثبتت الأيام أن تلك السياسة هى التى قضت على المنافقين . ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ سياسة أخرى وهاجم من ثبت عليهم النفاق فقتلهم لوجد رؤساء القبائل من ذلك ذرائع لايغار الصدور ولا تفتح باب الأخذ بالظن على مصراعيه ، ويضاف الى ذلك أنه كان بين المنافقين من يتردد ولا يقطع بتكذيب النبي عليه السلام ولا يصدقه كما كان فيهم من يعرف صدقه ويعاند .

عدم التغافل عن شأن المنافقين وجهادهم

ولا يتطرق الى الذهن

ان المقصود بسياسة ترك المنافقين وعدم محاكمتهم هو التغافل عن شئونهم ومكائدهم فان ذلك ليس من الحزم فى شىء، بل إن من شأنه أن يمكنهم من تحقيق ما يكيدونه ونشر الفساد الذى يبغونه. والقرآن لم ترد نصوصه فى هذا الشأن على وتيرة واحدة فقد أمر الله تعالى رسوله الكريم مراراً بالاعراض عنهم فقال تعالى «والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا» (النساء ٨١) «يحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم إنهم رجس» (براءة ٩٥) وإلى جانب ذلك يأمر الله تعالى بجهادهم فى قوله: «يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير» (براءة ٧٣، التحريم ٩) ولا شك أن المراد بمجاهدة المنافقين فى هذه الآية ليست محاربتهم بالسيف كمحاربة الكفار لأنهم كانوا يظهرون الاسلام وينكرون الكفر، فجهادهم كان من نوع آخر لأنه فى حد ذاته

عبارة عن بذل الجهد ، والآية الكريمة لم تحدد هذا الجهد فهو يشتمل على طرق لا حصر لها من إظهار الحجة والدعاية الحسنة والأخذ باللين أو بالشدة حسب الظروف الملائمة . وفى هذا أبلغ الاعجاز إذ يترك الباب مفتوحا للذكاء أن يتخذ ما يستطيعه من الوسائل لاحباط كيد النفاق فى حدود ما أحل الله دون اقتحام لأبواب الآثام والمنكرات .

ويستفاد من النصوص القرآنية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شديد الرأفة والحرص على الناس ، ويفسح لهم من صدره الشريف أكبر الافساح ، وعاتبه الله تعالى فى بعض ذلك ، كما حدث فى قبوله استئذان المنافقين للتخلف عن غزوة تبوك وغيرها ، كما أمره بعدم الحزن عليهم بقوله :

« يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم »
(المائدة ٤١)

ومع ذلك فقد أنزل الله تعالى كثيراً من التعليمات التى من شانها اتقاء شرور المنافقين كان من أهمها عدم موالاتهم والاختلاط بهم والتنبيه الى صفاتهم وأحوالهم ومكائدهم . وسنفرد فيما يلى شيئاً مما ورد عن ذلك .

النهى عن موالاة المنافقين

ورد النهى فى الأصل عن اختلاط المؤمنين بالكفار من أهل الكتاب والمشركين ، أو ربط أواصر الصداقة والوفاء معهم أو موالاتهم ، وذلك فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » (المائدة ٥١، ٥٢، ٥٣) ولهذا كان الانضمام الى الكفار وموالاتهم مخالفة صريحة للقرآن ، وكان من أعظم الدلالات على النفاق ، ومن أخص خصائص المنافقين الذين

كانوا يوالون الكفار ويعاهدونهم فى السر وأحياناً فى العلن .
وقد سبق القول أن الحوادث قد كشفت وجود عهود سرية مستورة بين عبد الله بن أبى وبين يهود المدينة ، وأنهم كانوا يعقدون اجتماعات كثيرة للتآمر ، وأن الكفر والضغن كانا يجمعان بين قلوبهم : يقول بعضهم لبعض إن أمر محمد لن يتم فيقول اليهود إن العزة والمنعة لهم ، أى لكفار الأوس والخزرج من الوثنيين المنافقين الذين راحوا لليهود يستجدون منهم الاشادة بذكر عزة ومنعة لا وجود لهما إلا فى رؤوسهم الخاوية .

اشتراك اليهود فى النفاق

وقد ساعد على وجود التآمر عن طريق الموالاة أن بعض اليهود اشتركوا فى النفاق ، وكان منهم منافقون أمثال أوس بن قيظى وشاس بن قيس وزيد بن اللصيت ومشوا فى النفاق على سنن ابن أبى وأحزابه . وقال الله تعالى فى شأنهم (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم

يرجعون) (آل عمران ٧٢) (وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون) (المائدة ٦١)

وكان المشركون فى مكة يخوضون فى مجالسهم فى ذكر القرآن ويستهزئون به ، فأنزل الله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (الانعام ٦٨) فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة فعل أحبار اليهود مثل فعل المشركين من الاستهزاء ووافقهم المشركون كما وافقهم المنافقون . فساوى الله تعالى بين المنافقين وأولئك الأحبار فى الكفر ، ونهى عن موالاتهم والاختلاط بهم . وفى ذلك يقول الله تعالى : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون

الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فان العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم فى الكتـــاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذن مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) (النساء ١٣٨ وما بعدها)

ولم يقف التآمر بين المنافقين والكافرين من المشركين وأهل الكتاب على أمكنة معينة ، بل كانوا يتآمرون حيثما سنحت لهم الفرصة ، حتى لقد وصل اللؤم بالمنافقين أن يتخذوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم موطناً لتآمرهم .

منافقـــون يتآمرون بالمسجد ويأمر الرسول صلى الله عليه وســلم باخراجهم

وقد ورد فى الأخبار أن المنافقين كانوا إذ يحضرون المسجد يستمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزئون بدينهم ،

فاجتمع يوماً فى المسجد منهم ناس ، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفاً ، فقام أبو أيوب ، خالد بن زيد بن كليب الى عمرو بن قيس أحد بنى غنم بن مالك بن النجار ، وكان صاحب آلهتهم فى الجاهلية ـ فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول : « أتخرجنى يا أبا أيوب من مربد بنى ثعلبة . ثم أقبل أبو أيوب أيضاً الى رافع بن وديعة أحد بنى النجار فلببه بردائه ثم نتره (جذبه) نتراً شديداً ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد ، وأبو أيوب يقول له « أف لك منافقاً خبيثاً ! أدراجك (ارجع من الطريق التى جئت منها) يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام عمارة بن حزم الى زيد بن عمرو وكان رجلا طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه فلدمه (ضرب ببطن الكف) بهما فى صدره لدمة خر منها وهو يقول خدشتنى يا عمارة قال أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك

من العذاب أشد من ذلك . فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام أبو محمد مسعود بن أوس بن يزيد من بنى غنم ابن مالك بن النجار الى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاماً شاباً ، وكان لا يعرف فى المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه من المسجد . وقام رجل من بلخدرة بن الخزرج ، رهط أبى سعد الخدرى يقال له عبد بن الحارث الى رجل يقال له الحارث بن عمرو ، وكان ذا جمة ، فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد والمنافق يقول لقد أغلظت يا ابن الحارث فقال له إنك أهل لذلك أى عدو الله ، لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نجس . وقام رجل من بنى عمرو بن عوف الى أخيه زوى بن الحارث ، فأخرجه من المسجد إخراجا عنيفاً وأفف منه وهو يقول له غلب عليك الشيطان وأمره .

سبب النهى ومهما يكن من الأمر فإن كثيراً من المؤمنين كان يغتر بظاهر أقوال المنافقين وأحوالهم ويظنون فيهم

الصدق فيفشون اليهم الأسرار ، ويطلعونهم على الاحوال الخفية وخاصة لما كان بينهم من المحبة والعلاقة بسبب النسب والمصاهرة والرضاع ، ولكن الله تعالى منع المؤمنين من ذلك وأفهمهم أن تلك القلوب كانت مليئة بالغيظ والحقد يسبب ما رأوه من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وازدياد قوة الاسلام قال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الايات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور) (آل عمران ١١٨، ١١٩)

الباب الرابع

أحوال المنافقين وصفاتهم

النفاق جامع لجميع الآفات والخصال الذميمة

النفاق جامع لجميع الآفات والخصـــال الذميمة فى الدين والدنيا ، وخطره أشد الأخطار على العقائد والنفوس وعلى الهيئة الاجتماعية . ولذلك عنى القرآن بتفصيل أحوالهم وبيان قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم وصب عليهم أسواطاً متوالية من العذاب والبـــلاء والمحن . وســبق أن ذكرنا الكثير من أحوالهم فى الحروب وطرفا من أحوالهم فى مواقف أخرى ، وقبل أن نحاول استجماع ما ورد فى كتب السير والتاريخ عن تلك الأحوال نقول إن جميع أحوالهم وأعمالهم يشترك فيها عامل واحد تصدر جميعها عنه وتختلط به ،

وهذا العامل هو الحيرة وما يتبع الحــيرة وينجم عنها من الاضطراب والقلق والحياة فى الظلام وشدة التردى فى الأخطاء وصفات الجبن والنذالة والبخل وما اليها .

عامل الحيرة يشترك فى جميع أحوال المنافقين وصـفاتهم وقد ورد فى أول القرآن بعض صــفات المنافقين ، كما سبق ذكره ، ثم شرحت إجمالا فى سورة المنافقين وفصل كثير منها فى مواضع متفرقة شمل بعضها عدداً كبيراً من الآيات كما فى سورة النساء ولو ضمت الآيات التى نزلت فى شأن المنافقين بعضها الى بعض لبلغت ما يقرب من عشر القــرآن . وإلى جانب ذلك آيات أخـرى تنص على أمور عامة يمكن أن تشمل المنـافقين وغيرهم .

مثلات عن الحيرة من القرآن وقد مثل الله تعالى لهذه الحيرة مثلين مركبين فى أوائل سورة البقرة عقب ذكر صفات المنافقين العامة أودع فيهما أسرار النفاق مفصلة أبدع التفصيل وأدقه وجعـــل فيهما الكلمة الجامعة المانعة قال تعـــالى :

« (١) مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون (٢) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير » .

وقبل أن نستطرد فى ذكر أحوال المنافقين وصفاتهم نرى لزاماً علينا أن نتفهم كيف كانت الحيرة والاضطراب اللذين مثل لهما هذان المثلان .

ويلاحظ أولا أن الأمثال وردت كثيراً فى القرآن الكريم يقول الله تعالى : « وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم

يتفكرون » (الحشر ٢١) « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت ٤٣)

« ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » (الزمر ٢٧) « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » (البقرة ٢٦) والواقع أن الأمثال من أقوى الأساليب التي تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه لأن الغرض منه تشبيه الأمر الخفي بالشيء الجلي والغائب بالحاضر فيتأكد الوقوف على ماهيته ويتجسد معناه ويصير بذلك الحس مطابقاً للعقل ، وذلك نهاية الايضاح ومثاله تشبيه الايمان بالنور والكفر بالظلمة ، فالترغيب في الايمان مجرداً عن ضرب المثل يتأكد وقوعه في القلب إذا مثل بالنور كما يتأكد النفور من الكفر إذا مثل بالظلمة ، وكتأكيد الضعف عند تمثيله بنسج العنكبوت .

١ . المثل الاول يشبه الله تعالى حيرة المنافقين في الدنيا والآخرة

فى المثل الاول بحيرة من أعطى نوراً ثم سلب منه ولم ينتفع به ، ويشبههم فى المثل الثانى بمن أخذته السماء فى ليلة حالكة الظلمة بمطر هطال غزير يشتد فيه لمعان البرق وقصف الرعد ؛ وهو يتوقى الموت بما لا يفيده فيضع أصابعه فى آذانه .

وقد ذهب المفسرون فى تفسير هذين المثلين مذاهب شتى : فأما عن المثل الأول فقال بعضهم إن وجه التشبيه أن مستوقد النار لما زال عنه النور تحير ؛ وحيرة من كان فى نور ثم زال عنه أشد من حيرة السالك فى ظلمة مستمرة . ولاشك أن المنافق كان يحيط به نور المؤمنين من كل ناحية ويسمع هدى النبى صلى الله عليه وسلم ولا ينتفع به .

وقال بعضهم إن استبقاء النار هو إظهار المنافق كلمة الايمان وهو يزين ظاهره بهذا النور ، ثم يذهب الله ذلك النور بهتك ستر المنافق فينكشف أمره للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهو فى كلا الحالين يتردد فى الحيرة .

وقال الحسن البصرى إن المنافقين لما أظهروا الاسلام ظفروا بحقن دمائهم وسلامة أموالهم عن الغنيمة وأولادهم عن السبي ، كما ظفروا بغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين ، فكان ذلك نوراً من نور الايمان ، ولما كان ما ظفروا به بدون حق قليلا بالنسبة الى العذاب الأليم شبههم بمستوقد النار الذى انتفع بضوئها قليلا ثم سلب منه فدامت حيرته وحسرته للظلمة التى جاءته فى أعقاب النور ، فكان يسير انتفاعهم فى الدنيا يشبه النور ، وعظيم عذابهم فى الاخرة يشبه الظلمة .

وقال بعض المفسرين ان المقصود من التشبيه هو أن الهدى الذى باعوه كالنار المضيئة حول مستوقد النار ، وأن الضلالة التى اشتروها أذهب الله بها ذلك النور وتركهم فى الظلام .

المثل الثانى وأما عن المثل الثانى فقد شبه الله المنافقين فى حيرتهم وجهلهم بالذين يسيرون فى ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل

وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، يصحب ذلك رعد وبرق وصواعق : فالصواعق تدفعهم أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، والبرق يكاد يعمى أعينهم ، ويخطف أبصارهم ، فإذا أضاء لهم مشوا فيه ، واذا ذهب عنهم بقوا فى ظلمة كثيفة وعاودتهم الحيرة ، لأن من أصابه البرق فى هذه الظلمات الثلاث ، ثم ذهب عنه تشتد حيرته وتعظم الظلمة فى عينيه ، وتكون له سبباً فى اشتداد الحيرة ، بخلاف من لم يزل فى الظلمة . وهذا يشير الى نهاية الحيرة فى الدين ونهاية الخوف فى الدنيا . والمثل الثانى أدل على فرط الحيرة وشدة الأخطاء .

ولعلماء البيان فى المثل الثانى رأيان أولهما أنه تشبيه مفرق وهو أن يكون المثل مركباً من أمور ، والمثل يكون أيضاً من أمور ويكون كل واحد من المثل شبيها بكل واحد من الممثل . فهاهنا شبه دين الاسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر . وشبه ما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات ، وما

فيه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد. وما يصيب الكفرة من الفتن من جهة الاسلام بالصواعق ، ويكون معنى المثل أن المنافقين مثلهم كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة .

والرأى الثانى أنه تشبيه مركب . وهو الذى يشبه فيه مدلول إحدى الجملتين بمدلول الأخرى بصفة إجمالية فى أمر من الأمور وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى . فها هنا شبهت حيرة المنافقين بحيرة من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع الرعد والبرق - وهو أيضاً التشبيه الذى ينطبق على المثل الأول فى تشبيه حيرة المنافقين فى أمور الدنيا والدين بحيرة من انطفأت ناره بعد إيقادها .

وذهب بعض المفسرين الى اعتبار آخر : وهو أن الظلمات والرعد والبرق يقصد بها الأشياء الشاقة على المنافقين ، وهى التكاليف كالصلاة والصوم وترك الرياسات والجهاد مع الآباء والأمهات ، وترك الأديان القديمة والانقياد لمحمد صلى الله عليه

وسلم مع شدة استنكافهم من الانقياد له . وأنه كما أن الانسان يبالغ فى الاحتراز عن المطر الصيب الذى هو أشد الأشياء نفعاً له بسبب هذه الأمور المقارنة، فكذلك المنافقون يحترزون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه الأمور المقارنة فكلما حصل لهم شىء من المنافع كعصمة أموالهم ودمائهم وحصول الغنائم لهم فانهم يرغبون فى الدين ، فاذا لم يجدوا من تلك المنافع شيئاً يكرهون الايمان .

تجسد المثلين فى جميع أحوال المنافقين ثم فى الدار الآخرة ومهما يكن من الأمر فان الباحث المدقق ليرى هذين المثلين كأنهما يتجسدان فى صورة حية فى جميع أحوال المنافقين وصفاتهم وتفصيلات أمورهم فى الحرب والسلم . وتظل هذه الصور فى ملازمتها لهم حتى تلاحقهم فى الدار الاخرة — قال الحسن البصرى أن كلا من المؤمنين والمنافقين يعطى نوراً يوم القيامة ، فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا ، ثم يؤخذ من حر جهنم وما فيها من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق ، فتمضى زمرة من المؤمنين

وجوههم كالقمر ليلة البدر ، ثم تمضى زمرة أخرى كأضواء الكواكب فى السماء ، ثم تغشاهم ظلمة فتطفىء نور المنافقين فيلتمسون النور من ورائهم فلا يجدون شيئاً . وقد وصف الله تعالى هذا المشهد بقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير)

(الحديد ١٣، ١٤، ١٥)

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه اذا دخل

المؤمنون الجنة والكافرون النار فتح الله من الجنة بابا على الجحيم في الموضع الذى هو مسكن المنافقين . فاذا رأى المنافقون الباب مفتوحاً أخذوا يخرجون من الجحيم ويتوجهون الى الجنة وأهل الجنة ينظرون إليهم فاذا وصلوا الى باب الجنة فهناك يغلق دونهم الباب .

وقد وصف الله حيرة المنافقين ،في موضع آخر أنهم على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه يحمهم القلق والاضطراب بدل السكون والطمأنينة فقال تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والاخرة ، ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير »(الحج ١١،١٢،١٣) وهو تفصيل لحالة القلق والاضطراب والحيرة لأن الثبات فى الدين إنما يكون

فى طاعة الله والخوف من عقابه فى حالتى السراء والضراء . أما إظهار الدين فى السراء والرجوع عنه عند الضراء فلا يكون صاحبه إلا منافقاً . قال الكلبي إن هذه الآية نزلت فى اعراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم اذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته رضى به واطمأن اليه ، وان أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان وقال له ما أتتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه .

واتخذت حيرة المنافقين أشكالا عديدة وألبستهم صفات من نسجها وأصباغها نذكر بعضها فيما يلى :

١ — حالة التربص

شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحالة فى قوله : « مثل المنافق مثل الشاة العابرة بين الغنمين — أى المترددة بينهما — تعبر الى هذه مرة والى هذه مرة »، وذلك أنهم كانوا ينتظرون ما يحدث للمؤمنين من خير أو شر ، فان ظهر المؤمنون على اليهود أو الكفار قالوا للمؤمنين ألم نكن معكم فاعطونا قسما من الغنيمة وإن ظهر الكفار قالوا للكفار ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم بأن ثبطنا عنكم الهمم وأدخلنا عليهم ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا فى مظاهرتهم عليكم فهاتوا لنا نصيباً مما أصبتم ، يقول الله تعالى :

« وإن منكم لمن ليبطئن ، فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » (النساء ٧٢و٧٣)

والظاهر أن المنافقين كانوا قد نصبوا أنفسهم عيوناً على من تميل نفسه الى الاسلام من الكفار واليهود يحذرونهم وينذرونهم ويردون من آمن منهم ويطعمونهم أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم سيضعف وأن أمرهم سيقوى . فاذا اتفقت لهم صولة على المسلمين قال المنافقون ألسنا غلبناكم على رأيكم فى الدخول فى الاسلام ومنعناكم منه ، وقلنا لكم إنه سيضعف أمره وسيقوى أمركم ، فلما شاهدتم صدق قولنا فادفعوا الينا نصيباً مما وجدتم ، وبهذه الطريقة يمنون على الكافرين . وقد تأكد هذا الوصف وفصل تفصيلا حاسماً فى قوله تعالى : « الذين يتربصون بكم ، فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » (النساء ١٤١) ثم قال (مذبذبين بين ذلك

لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) (النساء ١٤٣)

٢ ــ حالة الخوف

وصف الله حالة الخوف الشديد التى لازمت المنافقين فقال تعالى : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » (براءة ٥٦، ٥٧)

وقال أيضا : (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا الى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ولا

تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » .

(النساء ٧٧ ومابعدها)

والسبب فى هذا الخوف أنهم كانوا يشاهدون دولة الاسلام ترقى وتعلو وتتزايد ، وكلما رقت واستعلت ، اشتد خوفهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم من افتضاح أمرهم ، كذلك كانوا يخشون الناس وفتنتهم ويفضلون أن يتحاشوها ، ويقعوا فى عذاب الله الأليم الدائم ، وقالوا إن آمنا نتعرض للأذى من أهلنا وعشائرنا ، وإن تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد صلى الله عليه وسلم فاختاروا الاحتراز من الاذى العاجل ، وفى ذلك يقول الله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن

جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ، أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين »
(العنكبوت ١٠ و١١)

٣ — المنافقون فى الصلاة

كانت التكاليف الشرعية الظاهرة ، وعلى رأسها الصلاة من الأمور الثقيلة على المنافقين ، لأنهم يصلون ولا عقيدة لهم فيها ، لذلك كانوا يتثاقلون عنها ويتحايلون للتملص من أدائها — يقول الله تعالى (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى)
(براءة ٥٤) « وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى » (النساء ١٤٢)
وقد كانوا يضطرون الى هذه الصلاة اضطراراً لأنها من شعائر الاسلام الظاهرة القائمة فيصلا ومميزاً للمؤمنين عن الكافرين ، فإذا أدوا الصلاة أدوها مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون لأنهم

لا يرجون من أدائها ثواباً ولا يعتقدون فى تركها عقاباً .
وقد ورد فى صحيح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح ، فإن العتمة
تأتى وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام بها ، وصلاة الصبح
تأتى والنوم أحب اليهم من مفروح به ولولا السيف ما قاموا ـ
وقال صلى الله عليه وسلم ذاماً لمن أخر الصلاة « تلك صلاة المنافقين
ـ ثلاثاً ـ يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى
الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا ـ كذلك
روى البخارى ومسلم فى شأن قوم منافقين يتخلفون عن الجماعة
ولا يصلون أصلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أثقل
الصلاة على المنافقين العشاء والفجر أى جماعتهما ولو يعلمون مافيهما
لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر
رجلا فيصلى بالناس ثم انطلق معى برجال معهم حزم من حطب
الى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق بيوتهم بالنار .

٤ - المنافقون فى الصدقات والانفاق فى سبيل الله

أخذت الحيرة بخناق المنافقين وتلابيبهم فى شئون المال ، سواء فى نفقات الحرب والانفاق فى سبيل الله بوجه عام ، أو فى أداء الزكاة ودفع الصدقات وتوزيعها . والمال بطبيعته أمره عزيز على النفوس المريضة ومناط لخبرة الإيمان وبلاء القلوب . والأصل أن من طلب الدنيا بالحرص والشره والتكالب آل أمره فى الدين الى النفاق ، وأن من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله له فيه ، وكان عزمه منها أن يتوسل الى مصالح الدين ، فهذا هو الطريق الحق ويرجع ذلك إلى الرضاء بقضاء الله ، وأن يظهر أثر هذا الرضا على اللسان فيقول إن حسبه الله ويرغب فيما عند الله مما يعطى له . وذلك بعيد على من كان قلبه مليئاً بالنفاق .

الفقه فى الحروب كان المنافقون يضطرون للانفاق من أموالهم على وجوه لا يعتقدون صحة أمرها ، وخاصة فى الحروب ،

كما كانوا يرسلون أولادهم كرهاً للجهاد ويعرضونهم للقتل ،
وكانوا يبغضون محمداً صلى الله عليه وسلم، ويعيشون فى نار هذا
البغض ترعى قلوبهم ، وإنما يضطرون الى ذلك البذل خوفاً أن
يفتضح أمرهم ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فينطبق عليهم
حكم سائر أهل الحرب من الكفار ، ويتعرضون للقتل وسبى
الاولاد ونهب الاموال . وقد بكتهم الله بذلك فى سخرية قوية
بقوله عز وجل « قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم
إنكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم
نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ، ولا يأتون الصلاة
إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون »
(براءة ٥٣ و٥٤)

فى الصدقات — فأما فى الصدقات فكانوا يقفون فيها موقفين
مخزيين ، أحدهما فى دفعها والآخر فى توزيعها .

نقد باذل الصدقة — أما الأول فكانوا ينتقدون باذل الصدقة

سواء أكثر بذله ، أم قل ، ويحاولون الحط من شأنه .

وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف درهم فأمسكت لنفسى وعيالى أربعة ، وهذه الأربعة أقرضتها ربى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أمسكت ، وجاء عمر بن الخطاب بنحو ذلك ، وجاء عاصم بن عدى الانصارى بسبعين وسقاً من التمر ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة فقال قوم من المنافقين ما أعظم رياءهم . وروى أحد الصحابة أبو مسعود رضى الله عنه قال أمرنا بالصدقة وكنا نحامل (نحمل بالأجرة) على ظهورنا ، فجاء أبو عقيل بصاع من تمر وقال آجرت الليلة الماضية نفسى من رجل لإرسال الماء الى نخيله ، فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالى وأقرضت الآخر ربى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى الصدقات ، فقال المنافقون ما جاءوا

بصدقاتهم إلا رياء وسمعة ، وأما أبو عقيل فانما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الاكابر والله غنى عن صاعه ، فنزل فى جميع ذلك قوله تعالى (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ، (برا-٧٩) وقد بينت الآية فى صورة جلية أن المقصود من الأعمال الظاهرة هو النية والدواعى والصوارف ، وأن القليل الذى يأتى به الفقير قد يكون أكثر موقعاً عند الله تعالى من الكثير الذى يأتى به الغنى ، ولكن المنافقين كانوا غارقين الى أذقانهم فى ظلمات الجهل والاضطراب ولم يتجاوز نظرهم ظاهر الأمر فعيروا الفقير بصدقته القليلة واتهموا الغنى فى نيته .

نقد توزيع الصدقات وأما الأمر الثانى وهو توزيع الصدقات ، فقد كان مثار فتنة شديدة ، وكشف كثيراً من أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم ، وشدة شراهتهم فى الحصول

على المال . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ما آتاه الله من قليل المال وكثيره ، وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله عليه . وأما المنافقون فكانوا إن أعطوا كثيراً فرحوا ، وإن أعطوا قليلاً سخطوا وطعنوا فى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا إنه يؤثر بالصدقات من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى الجور فى القسم ، مع أنه كان أبعد خلق الله عن الميل الى الدنيا .

روى الكلبي أن رجلا من المنافقين كان يدعى أبا الجواظ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تزعم أن الله أمرك أن تضع الصدقات فى الفقراء والمساكين ، ولم تضعها فى رعاء الشاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أبا لك أما كان موسى راعياً ، أما كان داود راعياً ، فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام احذروا هذا وأصحابه فانهم منافقون .

وروى أبو بكر الأصم فى تفسيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه ماعلمك بفلان ؟ فقال مالى به علم

إلا انك تدنيه فى المجلس وتجزل له العطاء ، فقال عليه الصلاة والسلام إنه منافق أدارى عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره فقال لو أعطيت فلاناً بعض ما تعطيه ، فقال عليه الصلاة والسلام إنه مؤمن أكله إلى إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده .

وروى أبو سعيد الخدرى قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير (أصل الخوارج ويقال له ذو الخويصرة التميمى) فقال اعدل يارسول الله فقال ويلك من يعدل إذا لم أعدل ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنى يا رسول الله أقتل هذا المنافق فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية . وفى هذا كله يقول الله تعالى « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم

يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا

حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا الى الله

راغبون ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها

والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله

وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » .

(براءة ٥٨و٥٩و٦٠)

٥ ـ حالة المنافقين فى القضاء

كان القضاء من أشد الأمور التى ابتلى بها المنافقون والتى تاهوا تحت عبئها . فهم بطبيعة نفاقهم لا يحترمون العدل ، ويحتالون للباطل ، ويتملصون من الحق ما وسعتهم الحيلة . وأصاب الكثير منهم فى ذلك غير قليل من العناء والمشقة ، فان المؤمن المخلص يرضى بقضاء الله ورسوله ولا يجد غضاضة فى الخضوع للحق إذا تجلت آياته ، وأما المنافق فقلبه خلو من الإيمان فهو خلو

من الدافع الذى يدفعه الى الرضا بقضـاء الله ورسوله ، وهو ظالم لنفسه وللناس ، وهذا الظلم يدفعه إلى أكل الحقوق ، ولهذا كانوا يتباعدون من الاحتكام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحاولون التدليس إذا احتكموا اليه ، وكان شأنهم في ذلك أعجب الشأن ، فقد كان الرسول معروفاً بأنه الأمين وأنه لا يعدل عن الحق ، ولكن المبطل يخاف الاحتكام للقاضي العادل .

بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأحد المنافقين

روى عن الضحاك أنه كان بين المغيرة بن وائل وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أرض فتقاسما فوقع إلى علي منها مالا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا ، فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فاني اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آمنه

ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف على؟ فنزل قول الله تعالى «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون. ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون» (النور من ٤٧، الى ٥٢)

قصة بشر المنافق مع اليهودي وقد حدث مثل ذلك من أحد المنافقين يدعي بشر، وكان الحادث عجيباً، يدل على أن بشراً هذا كان عريقاً في النفاق الى درجة الحمق حتى أدى الى قتله

وهو أنه نازع رجلا من اليهود فقال اليهودى بينى وبينك أبو القاسم وقال المنافق بينى وبينك كعب بن الأشرف (وهو أحد طغاة اليهود من أشرافهم وعلمائهم) وكان سبب تهرب المنافق من الرسول عليه السلام أنه كان يعلم أن الرسول كان يقضى بالحق ولا يلتفت إلى الرشوة ، وكعب بن الأشرف كان شديد الرغبة فى الرشوة ومعروفا بتلك الرغبة ، واليهودى كان محقاً ، والمنافق كان مبطلا ، فلهذا أراد اليهودى الاحتكام إلى الرسول عليه السلام ، وأراد المنافق الاحتكام إلى كعب بن الأشرف . ثم أصر اليهودى على قوله فذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم لليهودى على المنافق ، فقال المنافق لا أرضى انطلق بنا إلى أبى بكر ، فحكم أبو بكر رضى الله عنه لليهودى ، فلم يرض المنافق وقال بينى وبينك عمر ، فذهبا إلى عمر رضى الله عنه فأخبره اليهودى أن الرسول عليه الصلاة والسلام وأبا بكر حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال عمر للمنافق هكذا ! فقال نعم قال اصبر ان لى حاجة أدخل فأقضيها وأخرج اليكما فدخل فأخذ سيفه ثم خرج اليهما فضرب المنافق حتى برد وهرب اليهودى ، فجاء أهل المنافق فشكوا عمر الى النبى صلى الله عليه

وسلم يطلبون دية القتيل ويحلفون ما نريد بطلب ديته الا الإحسان وموافقة الحق . فسأل عمر عن قصته فقال عمر إنه رد حكمك يارسول الله ، فجاء جبريل عليه السلام فى الحال وقال انه الفاروق فرق بين الحق والباطل فقال النبي صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق ونزل فى ذلك قول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ، ولو

أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما . (النساء من ٦٠ الى ٦٥)

قصة بشر ابن أبيرق كذلك عمد منافق آخر كان يدعى بشر بن أبيرق الى ارتكاب سرقة ، وكان الى جانب النفاق لصاً خبيثاً معتاداً على ذلك . وحاول التدليس عند ماعرض أمر السرقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن يوضح حقيقة الأمر ويقرر القواعد الأساسية فى مثل هـذه الشئون ، وقد ورد تفصيل ذلك بروايات مختلفة . وانا نورد هنا ما أخرجه الترمذى فى صحيحه حيث أورد القصة بكثير من ألفاظها :

روى الترمذى عن قتادة بن النعمان قال :

كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ،

وكان بشير رجلا منافقا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينحله بعض العرب ثم يقول قال فلان كذا وكذا قال فلان كذا وكذا فاذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث أو كما قال الرجل وقالوا ابن الابيرق قالها (*) قال وكان أهل بيت حاجة وفقر فى الجاهلية والاسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منا فخص بها نفسه ، وأما العيال فانما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرمك فجعله فى مشربة له ، وفى المشربة سلاح ودرع وسيف . فعدى

(*) كان بشر يقول :

أو كلما قال الرجال قصيدة — أضموا وقالوا ابن الأبيرق قالها

عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح .
فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال يا ابن أخى إنه قد عدى علينا
فى ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال
فتحسسنا فى الدار وسألنا ، فقيل لنا قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا
فى هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم ، قال
وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل فى الدار والله ما نرى صاحبكم
إلا لبيد بن سهل ، رجل منا له صلاح واسلام ، فلما سمع
لبيد اخترط سيفه وقال أنا أسرق ! فو الله ليخالطنكم هذا
السيف أو لتبينن هذه السرقة ، قالوا اليك عنها أيها الرجل فما
أنت بصاحبها ، فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها .
فقال لى عمى يا ابن أخى لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فذكرت ذلك له . قال قتادة فأتيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقلت إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا الى عمى
رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه
فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه . فقال
النبي صلى الله عليه وسلم سأنظر فى ذلك . فلما سمع بنو أبيرق

أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه فى ذلك، فاجتمع فى ذلك ناس من أهل الدار فقالوا يا رسول الله إن قتادة ابن النعمان وعمه عمدوا الى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت قال قتادة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته فقال عمدت الى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة، قال فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فأتانى عمى رفاعه فقال يا ابن أخى ما صنعت فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله المستعان فلم يلبث أن نزل القرآن « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما (*) ، واستغفر الله ، إن الله كان

(*) أى بنى أبيرق.

غفوراً رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . هأنتم هـؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما . ومن يكسب إثما فانما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (*) . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما

(*) أى قوله عن لبيد

يضرونك من شيء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما »

(النساء من ١٠٥ الى ١١٤)

فلما نزل القرآن أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح فرده الى رفاعه فقال قتادة لما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخاً قد عسى أو عشى فى الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولا ، فلما أتيته بالسلاح قال يا ابن أخى هو فى سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

هذه القصة على ما أخرجه الترمذى فى صحيحه وقد روى الطبرى صوراً أخرى لها منها :

أن طعمة بن أبيرق كان رجلا من الأنصار من بنى ظفر سرق درعاً لعمه كانت وديعـــة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين فجاء اليهودى الى نبى الله صلى الله عليه وسلم يهتف فلما رأى ذلك قومه بنى ظفر جاءوا الى النبى صلى

الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم وكان النبي قـد هم بعذره حتى
أنزل الله فى شأنه ما أنزل .

وروى الطبرى أيضاً أن نفراً من الأنصار غزوا مع النبي
صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم فأظن
بها رجلا من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال إن طعمة بن أبيرق سرق درعى فأتى به رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى السارق ذلك عمد اليها فألقاها
فى بيت رجل برىء وقال لنفر من عشيرته إنى قد غيبت الدرع
وألقيتها فى بيت فلان وستوجد عنده ، فانطلقوا الى نبى الله صلى
الله عليه وسلم ليلا فقالوا يا نبى الله إن صاحبنا برىء وإن سارق
الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علما فاعذر صاحبنا على رؤوس
الناس وجادل عنه فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك فقام رسول الله
صلى الله عليه وسلم فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله
الآية .

ومهما يكن من الاختلاف فى تفاصيل القصة فالواضح منها

جميعاً أن ذلك المنافق كان يجد العناء فى نفسه من السرقة ثم العناء مما يحيط به من الأدلة ثم العناء مما ينزل فى حقه من القرآن ظلمات وحيرة يتخبط فى دياجيرها . وقد روى أن ابن أبيرق لما نزلت هذه الآيات لم يجد بدآ من الهرب فهرب الى مكة ولحق بالمشركين ونزل على سلافة بنت سعد ، فقال حسان بن ثابت يعرض بها :

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت
ينازعها جلد استها وتنازعه
ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتمو
وفينا نبى عنده الوحى واضعه

فلما بلغها أخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به فرمته فى الأبطح ثم قالت له إنما أهديت لى شعر حسان ما كنت تأتينى بخير . ثم لحق بقريش ورجع فى دينه ثم عدا على مشربة للحجاج بن علاط البهرى حليف لبنى عبد الدار فنقبها فسقط عليه حجر فلما أصبح أخرجوه من مكة . فهرب الى خيبر ثم إنه نقب بها بيتاً ذات ليلة ليسرق فسقط عليه الحائط فمات مرتداً .

٦ ــ المنافقون فى القتال

لعل أشد أنواع الحيرة والاضطراب كانت تغشى المنافقين عند ما كان يصدر أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحشد الجيوش للقتال. وقد رأينا فيما سبق كيف لجئوا فى أوائل الأمر لمحاولة إدخال الفشل على جيوش المسلمين كما حدث يوم أحد . فلما اشتدت قوة المسلمين واستحال على المنافقين أن يعودوا لتلك المحاولة ، كان الأمر بالقتال يقع على أسماعهم وقع الصواعق حتى وصفوا فى القرآن بأنهم كانوا ينظرون الى النبى صلى الله عليه وسلم كأنهم فى غشية الموت ثم يحاولون التملص من القتال باختلاف الأعذار إذ يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد ، وإنما نقاتل العرب من ذوى أرحامنا وقبائلنا . يقول الله تعالى :

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ، فأولى

لهم طاعة وقول معروف ، فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها . (القتال من ٢٠ الى ٢٤)

التخلف والاستئذان

على أن القتال كان يجرد المنافقين من جميع أسلحتهم ويدفع أغلبهم الى التخلف على ما فيه من انكشاف السريرة ويعمد البعض الى الاستئذان من النبي صلى الله عليه وسلم ملتمساً أتفه الأسباب ، ثم إن من لم يتخلف واندس بين زمر المؤمنين فى الجيش كان لا ينفك يأتى بالخبيث من القول أو العمل ما يفضح نيته .

وقد كان المنافقون يعمدون الى الاستئذان مرة وإلى إغفاله

أخرى حسب ما تمليه عليهم ظروفهم . فنى حفر الخندق استأذنوا بحجة أن بيوتهم عورة وبحجة المرض والضعف ، كما عمدوا إلى الاستئذان فى التخلف عن غزوة تبوك متشبثين بأعذار واهية وسخيفة ونزل فى تبكيتهم ما مر ذكره من الآيات . ومع ذلك فان كثيراً من المنافقين لم يكن ليلجأ الى الاستئذان ورأى أن يضرب بهذه الطريقة عرض الحائط ، وزعم فى نفسه أن أحداً سوف لا يشعر بما يخفيه فى صدره . سواء فى أمور الحرب أو غيرها . ومثال ذلك أنهم كانوا يتسللون متوارين عن المسلمين يوم الجمعة أثناء خطبة النبى صلى الله عليه وسلم ، وخاصة اذا تعرض فيها لبعض أعمالهم ومكائدهم فينظرون يميناً وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وإذا أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفاً . فأنزل الله تعالى فى جميع ذلك : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا

حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم »

النور ٦٢ و٦٣

الباب الخامس

أعمال المنافقين وأسلحتهم

عرض الله أسلحة المنافقين عرضاً عاماً بقوله تعالى :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون » (براءة ٦٧)

وقد عمد المنافقون الى جملة أسلحة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كان من أهمها «١» اليمين الكاذبة و «٢» الخداع و «٣» إثارة الخلاف بين المسلمين و «٤» التنفير منهم و «٥» إيصال الأذى إليهم و «٦» نشر الخوف والإرجاف للتأثير فى ضعاف النفوس بالدعاية السيئة و «٧» موالاة الكفار و «٨» محاولة إدخال الفشل فى القتال . وقد ادرع المنافقون بهذه الأسلحة

الدنيئة وغيرها من الوسائل الخبيثة ليحادوا الله ورسوله فأذلهم الله أشد الذلة وأنذرهم بذلك فقال تعالى (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) (المجادلة ٥ و٦) (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) (المجادلة ٢٠)

وسنفصل فيما يلى مالم يسبق ذكره من تلك الأعمال :

١ ـ اليمين الكاذبة

ورد شأن هذه اليمين فى جملة مواضع من القرآن :

١) ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون (براءه ٥٦)

٢) يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (براءه ٦٢)

٣) يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا (براءة ٧٤)

٤) وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون (النور ٥٣)

٥) ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم

ماهم منكم ولامنهم ، ويحلفون على الله الكذب وهم يعلمون.
أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون.
اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين.
ان تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون. يوم يبعثهم الله جميعا
فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا
إنهم هم الكاذبون. استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر
الله أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان
هم الخاسرون (المجادله من ١٤ الى ١٩)

٦) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم
ساء ما كانوا يعملون (المنافقون ٢)

وفي هذه الآيات ما يدل على أن المنافقين كانوا يكثرون من
الايمان الكاذبة يطلقون بها ألسنتهم بدون مبالاة. ولعلهم فطنوا

فى ذلك الى ما ورد فى مثل فرنسى متداول معناه إذا لم تكن
صاحب حق فقل الكذب وكرر الكذب وأصر على الكذب ،
فاذا لم تفز بالتضليل على الحق فلا أقل من التهويش على خصومك
وهى صفة ليست من الايمان فى شىء ، ولعل فى هذه الآيات أكبر
الزجر للذين يجرى الحلف على ألسنتهم بسبب وبدون سبب ،
ولأتفه الأسباب : لايعبؤون إن كان حلفهم على حق أو على باطل
وقد نهى الله تعالى عن الحلف الجذاف فكيف باليمين الكاذبة
وهى تعقب النفاق فى أظلم أشكاله وأرذل سيئاته .

٢ - الخـــداع

ورد شأن الخداع فى موضعين :

١) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا
أنفسهم وما يشعرون (البقرة ٩)

٢) ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم (النساء ١٤٢)

والمقصود من الخداع هو عدم مطابقة الظاهر للباطن وهو أعظم عنصر من عناصر النفاق والركن الأساسى الذى يتكون منه . وقد عمد المنافقون الى الخداع لأغراض أهمها :

١) أن يكونوا محل احترام من النبي صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين .

٢) أن يقوموا بأدوار الجاسوسية فيطلعوا على أسرار النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وليتربصوا بهم الدوائر وليدلوا الكفار على ما قد ينتفعون به للكيد لهم .

٣) اتقاء القتل إن هم أظهروا الكفر .

٤) الطمع فى أموال الغنائم .

وقد رد الله خداعهم بأمرين الأول أنهم يخدعون أنفسهم والثانى أن الله خادعهم . أما خداعهم لأنفسهم فذلك أنهم يظهرون لأنفسهم طرقاً للنجاة ، بيد أنها طرق للهلاك فى الدنيا والآخرة فمآل خداعهم للكشف والفضيحة فى الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى . وأما أن الله تعالى خادعهم فقد ورد عن ابن عباس فى

معنى ذلك أن الله تعالى يعطيهم نوراً يوم القيامة كما يعطى المؤمنين فاذا وصلوا الى الصراط انطفأ نورهم وبقوا فى الظلمة ، والدليل على ذلك ما سبق أن ذكرناه فى المثلين اللذين ضرب بهما حال المنافقين فى الحيرة .

وقد وصف الله حال المخادعين فى موضع آخر فقال تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » (البقرة ٢٠٤و٢٠٥و٢٠٦) وقد أورد القرطبى عن الترمذى أن فى بعض كتب الله تعالى « إن من عبادى قوماً ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ؛ يلبسون للناس جلود الضأن من اللين يشترون الدنيا بالدين يقول الله تعالى أبى يغترون وعلى يجترئون فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تدع الحليم منهم حيران » .

ومن مظاهر خداع المنافقين واستغراقهم فى لؤم الطبع أنهم كانوا يحادون الله ورسوله ويأتون بالاعمال المنكرة طوعا وعمداً ويكذبون الرسول عليه السلام وينهون عن المعروف ويدفعون الى المنكر ويقبضون أيديهم عن كل خير ويظنون بالله ظن السوء ومع ذلك كانوا إذا قابلوا الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتورعون أن يقولوا له نشهد إنك لرسول الله ويمتدحونه. وتلك طريقة خبيثة يعلمها العريقون فى فنون النفاق والكذب.

والخداع بصفة عامة يشترك فيه المنافقون وغيرهم وهو يحمل معنى الغدر. إلا أن خداع المنافقين يتميز بالاستمرار والمطاولة وقد ادعى الاسلام نفر من الكفار واحتالوا بذلك ليغدروا بمن يستطيعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغدروا بستة منهم وكان خداعهم قاصراً على ذلك الادعاء لم يعدوا فى المنافقين وهم أصحاب الرجيع.

التبييت

وقد كان من مظاهر خداع المنافقين ومستلزماته أن طائفة منهم كانوا يسهرون بالليل يتآمرون فيما بينهم على إحداث الفتن ويتواطئون على أنواع كثيرة من المكر والكيد ويقلبون أقوال النبي صلى الله عليه وسلم. وقد وصفت هذه المؤامرات فى القرآن بكلمة التبييت وأمر الله تعالى بالاعراض عن تلك الأقوال حتى لا تشيع الفتن وأطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على كثير من تفصيل تلك الاحوال وبكتهم على سوء صنيعهم قال الله تعالى : « ويقولون طاعة ، فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول ، والله يكتب ما يبيتون ، فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » (النساء ٨١) وأيضا : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا » (النساء ١٠٨)

استغفار المنافقين

ومن أعجب أنواع خداع المنافقين وأشدها

دلالة على الصفاقة أنهم كانوا يطلبون الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم إمعاناً فى التصنع والرياء . وقد خير النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك باعتبار أنه استغفار لسانى لا ينفع وغايته تطييب لقلوب بعض الأحباء من قرابات المستغفر لهم .

يقول الله تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين » براءة ٨٠

على أن قناع ذلك الطلب كثيراً ما كان ينكشف كما حدث عند ما طلب الى ابن أبى عقب حادث بنى المصطلق ونزول تصديق زيد بن أرقم رضى الله عنه أن يذهب للنبى صلى الله عليه وسلم فيحتذر اليه ويطلب أن يستغفر له فما كان من ابن أبى إلا أن خلع ثوب ريائه وأرغى فمه نتن النفاق فقال : أمرتمونى أن أؤمن فآمنت وأمرتمونى أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت فما بقى إلا أن أسجد لمحمد .

٣ ـ إثارة الخلاف بين المسلمين

ومثال ذلك ما فعله ابن أبى عند خروجه الى أحد حتى كان سيبا فى إحداث الخلاف بين بنى حارثة وبنى سلمة ، فهموا بالرجوع كما مر ذكره ، وما نزل فى شأن ذلك من القرآن . ويظهر أن المنافقين كانوا كثيراً ماينتهزون فرص الخلافات الفردية التافهة لتوسيع شقتها واضرام نار الفتن بين القبائل وفروعها ، فقد أنزل الله تعالى إيضاحاً للمؤمنين ألا يختلفوا فى شئون المنافقين وفتنهم فقال « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » (النساء ٨٨ وما بعدها)

وقد اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية فقيل : —

«١» إنها نزلت فى قوم قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم مسلمين فأقاموا بالمدينة ما شاء الله ، ثم قالوا يا رسول الله نريد أن نخرج الى الصحراء فأذن لنا ، فأذن لهم ، فلما خرجوا لم يزالوا

يرحلون مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين ، فتكلم المؤمنون فيهم فقال بعضهم لو كانوا مسلمين مثلنا لبقوا معنا وصبروا كما صبرنا ، وقال قوم هم مسلمون وليس لنا أن ننسبهم الى الكفر الى أن يظهر أمرهم فعين الله تعالى نفاقهم . «٢» وقال ابن عباس وقتادة أنها نزلت فى قوم أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين فاختلف المسلمون فيهم وتشاجروا .

ومهما يكن من الامر فان هذا يدل دلالة واضحة أن المؤمنين كانوا يختلفون فى شأن المنافقين بصفة عامة ، فكانت منهم فئة تميل اليهم وتذب عنهم وتواليهم طمعاً أن يدخلوهم فى الايمان الصحيح وترغيباً لهم ، وفرقة تعاديهم وتباينهم . فنهوا عن ذلك وأمروا أن يكونوا على نهج واحد فى التبرىء والتكفير والتباين .

٤ - التنفير من المؤمنين

ولقد عمدوا الى هذا التنفير بأوضاع خسيسة كلما سنحت لهم الفرص، وكان أهم تلك الأوضاع اثنان: الاول، وهو أنهم نسبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم التناقض فى التشريع والثانى السخرية.

زعم التناقض

أما التناقض فى التشريع فقد اغتنموا فرصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة رضى الله عنهما. وأطالوا فى ذلك القول أيما إطالة وقالوا إن الرسول الكريم تزوج مطلقة ابنه بعد أن نهى عن ذلك. فنفى الله هذه المزاعم ورد الأمور إلى أصولها وقضى أن التبني ليس إلا زوراً وبهتاناً على الطبيعة لايمت الى الحقيقة بشىء. يقول الله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم

بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما) .
الاحزاب ٤ و٥

كذلك قامت قيامة المنافقين عند تحويل القبلة من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام وطفقوا يتساءلون أسئلة شتى مليئة بالسخرية عن السبب الذى من أجله كان هذا التحويل فرد الله عليهم ذلك بقوله «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » البقرة ١٤٢

السخرية

وأما السخرية والاستهزاء فقد كانت رائداً يقود المنافقين فى كثير من أحوالهم وخاصة عند استماعهم لآيات القرآن الكريم يقول الله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من

يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون » (براءة ١٢٤ ومابعدها) ومن غريب الأمر إصرارهم على السخرية رغم الخوف الشديد الذى كان كان يفتابهم عند ما ينزل من القرآن ما يفضح أمرهم وذلك إذ ينظر بعضهم الى بعض نظر الرعب يقولون هل يراكم من أحد اذا تكلمتم بهذا فينقله الى محمد ثم ينصرفون متسللين يقول تعالى « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض ، هل يراكم من أحد ، ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » (براءه ١٢٧) وقد أخبر الله تعالى أن تلك السخرية لا تفيد ولا تغنى من الحق شيئا فقال (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) (براءه ٦٤)

٥ - الدعاية السيئة

أتقن المنافقون هـــذه الدعاية كأدق ما يتقن الآن رجال السياسة الدعايات المغرضة، وانتهزوا فى ذلك ماجبل عليه بعض الناس من الجبن وضعف النفس والقابليـة للتأثر ، وأيضاً لأن بعض المسلمين من أقارب رؤساء المنافقـين كانوا ينظرون اليهم بعين الاجلال والتعظيم .

وكان لهم فى هذا الصدد فنون دقيقة من شأنها إدخال الفشل على العقول وتشويش الأمور على ضعفاء المسلمين وإيقاعهم فى الحيرة والاضطراب ، ومن ذلك إذاعة أخبار الخوف وتربص الأعداء ونشر الأراجيف بذلك . وواقع الأمر أن النشر سواء كان فى جانب الأمن أو فى جانب الخوف لم يكن ليخلو من الكذب الكثير ، فان كان الكذب فى جانب الخوف أضعف القلوب وأدخل اليها الهلع ؛ وإن كان فى جانب الأمن أدخل الشبهة فى قلوب الضعفاء فى صدق الرسول عليه السلام .

والارجاف فى مسائل الأمن والخوف من الاسباب التى تستفز البحث الشديد والاستقصاء التام وكلاهما سبب لظهور الأسرار وهو ما كان يقصده المنافقون ، لأن العداوة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين والكفار ، وكان كل واحد من الفريقين فى إعداد لآلات الحرب وفى انتهاز الفرصة فيه ، وأمن أحد الفريقين خوف للاخر . فان وقع خبر الامن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم أرجف المنافقون بذلك ووصل الخبر فى أسرع مدة الى الكفار فأخذوا فى التحصن من المسلمين وفى الاحتراز من استيلائهم عليهم . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا فى ذلك وزادوا فيه فألقوا الرعب فى قلوب الضعفاء ، ولهذا كان الإرجاف سلاحاً ذا وجهين وكان منشأ للفتن والآفات من كل الوجوه . ولهذا قال الله تعالى « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » النساء ٨٣.

٦ - شماتة المنافقين

منى المنافقون بالفشل فى كل تدبير ، فلم يكن لديهم إلا سلاح العجز والذلة ، وهو الشماتة إن كان ذلك مما يعد سلاحاً . فصاروا يفرحون بمصائب المؤمنين ويتربصون بهم الدوائر ، وخاصة إذا لم يكن الفوز فى الحرب من نصيب المؤمنين ، مع أن ذلك لم يحدث إلا نادراً . على أن هذه الشماتة لم تفدهم فى شىء لأنها لم تخرجهم من دائرة الخوف والحيرة ، وإنما أضفت إلى قلوبهم أوضاراً من الخسة والدناءة ، والى نفوسهم أقنعة ليستتروا بها من مهانة العجز . وكان المؤمنون ذوى بصائر نافذة ونيات قوية وعزائم ثابتة يعلمون أنه ليس من شرط الأمر كونه حقاً حصول الدولة لهم والسلطان ، وأنه ليس تواتر الفتح والظفر ، يدل على كونه حقاً ، ولا تواتر الانهزام والانكسار يدل على كونه باطلا قال الله تعالى (إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) (براءه ٥٠ ومابعدها) (إن تمسسكم حسنة تسؤهم

وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط) آل عمران ١٢٠

وقد حدث أثناء بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات نقيب بنى النجار أسعد بن زرارة إذ أخذته الذبحة أو الشهقة ، فكانت وفاته سبباً لتقول اليهود والمنافقين حيث قالوا لو كان نبياً لم يمت صاحبه ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن ذلك يقولون لو كان نبياً لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً .

الباب السادس

عرض عام

الآن وقد فصلنا أغلب حوادث المنافقين وصفاتهم وأحوالهم ومكائدهم ، سنحاول أن نأتى فى الصفحات التالية بعرض عام لمن وردت أسماؤهم من المنافقين فى كتب السير والتاريخ مع ذكر الحوادث التى لم يسبق ذكرها .

ولقد اختلفت الروايات عن عدد المنافقين وأسمائهم ومن عرف أمره منهم ، فقيل إنهم ثلثمائة وقيل سبعون . ولكن من هم ، وما ذا كان من تفصيل أمرهم وأحوالهم وتدبير كيدهم ؟ صحائف غامضة من التاريخ لم تسطر أو تحقق على وجه التحديد .

وأشهر المنافقين الذين وردت أسماؤهم كانوا من الخزرج والأوس وبعض قبائل اليهود ، ولاشك أن كثيراً من الأعراب

دخلوا فى هذا المضمار . وبيان ذلك فيما يلى :

« ١ » عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين

وأخص أتباعه من قومه :

« ٢ » مالك بن أبى قوقل

« ٣ » وسويد بن الحارث

« ٤ » وداعس

« ٥ » ووديعه بن ثابت وهو أحد الذين اشتركوا فى بناء مسجد الضرار ، وهو الذى قال إنما كنا نخوض ونلعب

ثم باقى بناة مسجد الضرار وهم :

« ٦ » ثعلبة بن حاطب وسبقت قصته فى منع الصدقة

« ٧ » معتب بن قشير وهو الذى قال يوم أحد لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، وقال يوم الأحزاب كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن اليوم أن يذهب الى الغـــائط . وروى عنه القرطبى أنه خرج وأصحابه يوم أحد طمعاً فى الغنيمة

وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتآسفون على الحضور

«٨» أبو حبيبة بن الأزعر

«٩» عباد بن حنيف

«١٠» جارية بن عامر بن العطاف

«١١» مجمع بن جارية بن عامر ، وسبق أن ذكرنا أنه استعذر من عمر رضى الله عنه ، وأنه لم يكن يعلم ما فى نفوسهم

(يراجع أمره فى باب مسجد الضرار)

«١٢» زيد بن جاريه بن عامر

«١٣» نبتل بن الحرث ، وهو الجاسوس الذى وصفه جبريل عليه السلام وحذر منه

«١٤» بجاد بن عثمان

«١٥» بحزج

«١٦» خذام بن خالد ، وهو الذى أخرج مسجد الضرار من داره وجميع بناة مسجد الضرار من الأوس فيما

عدا وديعه بن ثابت فقد كان من رهط عبد الله بن أبى من الخزرج

ونذكر بعد ذلك الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم من المسجد حينما وجدهم فى حالة التآمر وهم :

«١٧» عمرو بن قيس

«١٨» رافع بن وديعه

«١٩» زيد بن عمرو

«٢٠» قيس بن عمرو بن سهل

«٢١» الحارث بن عمرو

«٢٢» زوى بن الحارث

وجميعهم من الخزرج ، فيما عدا الأخير فكان من الأوس .

ونذكر بعد ذلك أشخاصاً آخرين ، كما نذكر الأخبار التى وردت عن بعضهم :

«٢٣» الحارث بن حاطب أخ ثعلبة بن حاطب من الاوس

«٢٤» عبد الله بن نبتل من الاوس

«٢٥» عمرو بن خذام من الاوس

«٢٦» رافع بن زيد وأخوه :

«٢٧» بشر بن زيد وكلاهما من بنى زيد بن مالك من الاوس

«٢٨» مربع بن قيظى وهو من بنى حارثة من الاوس وكان ضرير البصر . وقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه عند خروجه مع الجيش فى الطريق الى أحد «من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أى من قرب) من طريق لا يمر بنا عليهم فقال أبو خثيمة من بنى حارثة أنا يا رسول الله، فنفذ به فى حرة بنى حارثة ، وبين أموالهم ، حتى سلك فى مال مربع بن قيظى ، فلما سمع حس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ؛ قام يحثو فى وجوههم التراب ويقول «إن كنت رسول الله فانى لا أحل لك أن تدخل حائطى» . وأخذ فى

يده حفنة من تراب ثم قال « والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك » . فبدر اليه سعد بن زيد من بنى عبد الاشهل بالقوس فشجه وابتدره القوم ليقتلوه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة » . وكان هذا سبباً فى أن غضب له ناس من قومه من بنى حارثة كانوا على مثل رأيه منافقين لم يرجعوا مع من رجع مع عبد الله بن أبى ، فهم بهم أسيد ابن حضير حتى أومأ اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك ذلك .

«٢٩» أوس بن قيظى وهو أخ مربع بن قيظى وهو الذى قال يوم الخندق يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا فلنرجع اليها .

وقد دخل أوس بن قيظى فى فتنة دبرها يهودى اسمه شاس ابن قيس ، وقد كان من أمرها أن شاس بن قيس كان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، فمر يوما

على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الاسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد . لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم ، فقال : اعمد اليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله . وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . ففعل اليهودى ما أمره به شاس . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب وهما أوس بن قيظى من الاوس من بنى حارثة ، وجبار بن صخر من الخزرج من بنى سلمة ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه ، إن شئتم رددناها الآن جذعة (أى رددنا الحرب من أول أمرها) فغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا موعدكم الظاهرة — أى الحرة — السلاح السلاح . فخرجوا اليها . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر

المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الاوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين . قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس . وأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس وما صنع :

« قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ، تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » آل عمران ٩٨و٩٩ وأنزل فى أوس بن قيظى وجبار ابن صخر ومن كان معهما من قومهما حيث تواثبوا للحرب بسبب ما أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية (ياأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) آل عمران من ١٠٠ الى ١٠٥

ودخول أوس بن قيظى فى الفتنة على النحو الذى حصل يدل على أنه كان ينتظر أقل إشارة للتمرد على تعاليم الأسلام التى كان يدعيها ، ومن يدرى لعله كان دسيسة أدخلها شاس بين المسلمين وتآمر معه أوس على استفزاز النفوس لاذكاء نار التناحر .

(٣٠) حاطب بن أميه بن رافع من الخزرج من بنى ظفر ، وكان شيخاً جسيما قد غشا (كبر وضعف) فى جاهليته ، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب ، أصيب يوم أحد إصابات بليغة حتى أثبتته الجراحات فحمل الى دار قومه وهو بالموت فاجتمع اليه أهل الدار من رجال المسلمين ونسائهم وجعلوا يقولون له أبشر يا حاطب بالجنة ، فنجم (ظهر) حينئذ نفاق أبيه وقال أجل جنة والله من حرمل ، بأى شىء تبشرونه ،

غررتم والله هذا الغلام من نفسه .

(٣١) بشر بن أبيرق سارق الدرع

(٣٢) قزمان وكان حليفاً لبنى ظفر من الاوس ، وقد كان من شأنه أنه قاتل قتالا شديداً يوم أحد ، وكان أول من رمى من المسلمين بسهم فأتقن الرمية ، ثم جال بالسيف فأدهش من رآه ، فقد روى أنه كان يرمى النبال كأنها الرحال ، وأنه كان يكت كتيت الجمل ، وقتل ثمانية أو تسعة من المشركين ، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال إنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك — فلما أثبتته الجراحات وحمل الى دار حلفائه من بنى ظفر جعل رجال من المسلمين يقولون له أبشر يا قزمان فقد ابتليت اليوم ، وقد أصابك ما ترى فى الله ، فقال بماذا أبشر ؟ فو الله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهماً من كنانته فقطع بها رواهش يده فقتل نفسه ، وفى رواية جعل ذباب سيفه فى صدره

بين ثدييه ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه .

ولم يكن هذا الرجل من الأوس ، وإنما كان غريباً ، فقد روى عاصم بن عمرو بن قتادة من بنى ظفر من الأوس قصة قزمان ، على أنه كان فيهم أتياً : أى غريباً لا يدرى ممن هو .

ولما انتحر قزمان جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أشهد أنك رسول الله قال وما ذاك؟ قال الرجل الذى ذكرت آنفاً أنه من أصحاب النار فعل كذا وكذا . فقال الله أكبر أشهد أنى عبد الله ورسوله ، وأمر بلال فنادى فى الناس انه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلم ، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . وقد أشار الامام السبكى الى قزمان فى تائيته فقال :

وقلت لشخص يدعى الدين أنه

بنار فألقى نفسه للمنية

وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحدكم

ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة — وفى هذا إشارة الى أن باطن الامر قد يكون بخلاف ظاهره . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فقال ، من يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

«٣٣» الضحاك بن ثابت من بنى عبد الاشهل من الأوس وكان محباً لليهود . ولم ترو عنه حوادث خاصة ، وإنما ورد أن حسان بن ثابت قال عنه :

من مبلغ الضحاك أن عروقه
أعيت على الاسلام أن تتمجدا

أتحب يهدان الحجاز ودينهم
كبد الحمار ، ولا تحب محمداً

دينا لعمرى لا يوافق ديننا
ما استن آل فى الفضاء وخودا

٣٤٠ الجلاس بن سويد بن الصامت وهو من بني عمرو بن عوف من الاوس وكان لزوجته ابن يتيم اسمه عمير بن سعد يعيش مع جلاس فى منزله ولا مال له ، وكان جلاس يكفله ويحسن اليه . فجاء الجلاس ليلة فاستلقى على فراشه ثم قال لئن كان ما يقوله محمد حقاً فلنحن شر من الحمير فقال عمير ياجلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى يداً وأعزهم على أن يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكن على دينى ولإحداها أيسر على من الأخرى ، فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له مقالة جلاس فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جلاس فحلف بالله لقد كذب على عمير وما قلت ما قال فقال عمير لقد قلته فتب الى الله ولولا أن ينزل القرآن فيجعلنى معك ما قلته .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استحلف الجلاس عند المنبر فحلف أنه ما قال واستحلف الراوى عنه فحلف لقد قال وقال اللهم أنزل على نبيك تكذيب الكاذب وتصديق الصادق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمين فنزل قوله تعالى :

(يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) براءة ٧٤ وما بعدها فاعترف الجلاس وتاب وقبل منه صلى الله عليه وسلم توبته وحسنت توبته ولم ينزع عن خير كان يفعله مع عمير ، فكان ذلك مما عرف به حسن توبته ، وقال صلى الله عليه وسلم لعمير لقد وقيت أذنك .

«٣٥» الحارث بن سويد بن الصامت أخ الجلاس - خرج مع المسلمين يوم أحد ، واتضح فيما بعد أنه لم يخرج بقصد الحرب في صفوف المسلمين ، ولكن ليتربص فرصة ليأخذ بثأر له . وكان من أمر هذا الثأر أن سويداً أباه قتل زياداً أبا المجذر في الجاهلية فظفر المجذر بسويد والد الحارث فقتله في أبيه ، وكان ذلك قبل الاسلام . فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم الحارث بن سويد وأسلم المجذر بن زياد وشهد بدراً ، فجعل الحارث يطلب مجذراً ليقتله بأبيه فلم يقدر عليه . فلما كان يوم أحد وجال المسلمون جولتهم أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه ، قيل وقتل أيضاً قيس بن زيد . فلما رجع النبي صلى الله

عليه وسلم الى المدينة عائداً من غزوة حمراء الأسد عقب غزوة أحد جاءه جبريل عليه السلام أن الحارث بن سويد فى قباء فانهض اليه واقتص منه بمن قتله من المسلمين غدراً يوم أحد.
فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قباء فى وقت لم يكن يأتيهم فيه وهو شدة الحر فى يوم حار، فخرج اليه الأنصار من أهل قباء ومنهم الحارث بن سويد وعليه ثوب مورس وفى لفظ آخر فى ملحفة مورسه، وفى لفظ آخر فى ثوبين مضرجين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمر بن ساعدة بضرب عنقه وفى رواية أنه قال له قدم الحارث بن سويد الى باب المسجد واضرب عنقه، وقيل أمر عثمان بن عفان بذلك فقدمه ليضرب عنقه فقال الحارث لم يا رسول الله فقال بقتلك المجذر بن زياد وقيس بن زيد، فما راجعه الحارث بكلمة فضرب عنقه — وفى رواية أن الحارث قال والله قتلته وما كان قتلى إياه رجوعاً عن الاسلام ولا ارتياباً فيه، ولكن حمية الشيطان، وإنى أتوب الى الله ورسوله مما عملت وأخرج ديته وأصوم شهرين

متتابعين وأعتق رقبة ، فلم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم .

«٣٦» الجد بن قيس من بنى سلمة من الخزرج وسبق الكلام عنه فى غزوة تبوك والحديبية ، وكان مشهوراً بالبخل قال النبي صلى الله عليه وسلم لبنى سلمة بعد أن نزل القرآن فى شأن الجد ابن قيس « من سيدكم يا بنى سلمة ، قالوا « جد بن قيس غيرأنه بخيل جبان » فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوأ من البخل بل سيدكم الفتى الابيض بشر بن البراء بن معرور . فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

وسود بشر بن البراء لجوده

وحق لبشر بن البرا أن يسودا

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله

وقال خذوه إننى عائد غداً

منافقو اليهود

لم يكن النفاق قاصراً على الكفار من الأوس والخزرج ، فقد دخل الاسلام أيضاً تقيه من القتل ورغبة فى الدسائس طائفة من اليهود تعوذوا بالاسلام ودخلوا فيه . منهم من يأتى :

«٣٧» سعد بن حنيف من بنى قينقاع

«٣٨» نعمان بن أوفى بن عمرو من بنى قينقاع

«٣٩» وأخوه عثمان بن أوفى

«٤٠» زيد بن اللصيت القينقاعى . وسبقت له قصة صغيرة إذ كان مع جيش المسلمين فى غزوة تبوك وقال ما قال عند ما ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو أيضاً الذى قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بسوق بنى قينقاع

«٤١» سلسلة بن برهام

«٤٢» كنانة بن صوريا

«٤٣» رافع بن حريملة من بنى قينقاع عده ابن هشام فى

المنافقين وأورد عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عنه حين مات « قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » ثم روى عنه بعد ذلك ما يدل على أنه من الكفار . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يهود الى الاسلام ، ورغبهم فيه ، وحذرهم غير الله وعقوبته ، فأبوا عليه ، وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة ، وعقبة بن وهب . يا معشر يهود اتقوا الله ، فو الله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ووهب ابن يهوذا ، ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما (يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير) (المائدة ١٩) ثم قص عليهم خبر موسى وما لقى منهم وانتقاضهم عليه ، وما ردوا من أمر الله حتى تاهوا فى الأرض

أربعين سنه عقوبة لهم .

ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حريملة ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والانجيل ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود . ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى فيهم (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) « البقرة ١١٣ » أى أن كلا يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به أى بكفر اليهود لعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى عليه السلام بالتصديق لعيسى عليه السلام ، وفى الانجيل ما جاء به عيسى عليه السلام من تصديق موسى

عليه السلام ، وما جاء به من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما فى يد صاحبه .

ومما ورد عن رافع بن حريملة أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد إن كنت رسولا من عند الله كما تقول ، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آيـــة ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ؛ تشابهت قلوبهم قد بينا الايات لقوم يوقنون) البقره ١٤٨

كذلك ورد عن رافع بن حريملة أنه ووهب بن زيد قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم « يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، أو فجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك ، فانزل الله تعالى فى ذلك من قولهما (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل . ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) البقرة ١٠٨ وأيضا « وقالوا لن

نؤمن لك حتى تفجر لنـا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنه من نخيل وعنب فتفجر الأنهـار خلالهـا تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينـا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينـا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا »

الاسراء من ٩٠ الى ٩٣

وفى جميع ما ذكر يدل دلالة واضحة على أن رافع بن حريمله كان كافراً كفراً صريحاً . وربما لجأ فى أواخر حياته تحت ضغط الحوادث الى النفاق ليزداد إمعاناً فى الكفر أو يحتال للفتنة أو يتقى القتل .

٤٤) رفاعة بن زيد بن التابوت روى ابن هشام أنه كان من عظماء يهود بنى قينقاع ، وأنه كان ممن أسلم ظاهراً . ولكن

ورد عنه ما يفيد اعتباره كافراً ، وذلك فيما رواه أن كردم بن قيس كان حليف كعب بن الأشرف ، وأسامة بن حبيب ، ونافع ابن أبي نافع ، وبحرى بن عمرو ، وحيي بن أخطب ، ورفاعة ابن زيد بن التابوت ، يأتون رجالا من الانصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم ، فانا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فانكم لا تدرون علام الامر يكون ، فانزل الله تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا . وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الاخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » (النساء من ٣٧ الى ٣٩) وكان رفاعة بن زيد بن التابوت إذا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال أرعنا سمعك يا محمد

حتى نفهمك ثم طعن فى الاسلام وعابه ، فانزل الله فيه :

« ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليـا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولـكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »

(النساء من ٤٤ الى ٤٦)

وقد مات رفاعه بن زيد بن التابوت بالمدينة فى أثناء عود النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من غزوة بنى المصطلق . وعند ما وصلوا الى مكان يقال له بقعاء هبت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها كادت تدفن الراكب ، وخاف المسلمون على أهلهم أن يكون ذلك لأمر حدث بالمدينة ، فان مدة الموادعة

التى كانت بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين عيينة بن حصن كان ذلك حين انقضائها فخافوا على المدينة منه فقال صلى الله عليه وسلم ليس عليكم منه بأس - يعنى عيينه بن حصن - ما بالمدينة من نقب (أى باب) إلا وملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، وإنما هبت هذه الريح لموت عظيم من الكفار ، وفى رواية مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة ، فكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم إذ مات فى ذلك اليوم رفاعه بن زيد — وقد ذكر أهل المدينة أن تلك الريح وجدت بالمدينة وأنه لما دفن عدو الله سكنت .

وقد روى أيضاً أن عبادة بن الصامت قال لعبد الله بن أبى ابن سلول وكان مع جيش المسلمين فى الغزوة . يا أبا حباب مات خليلك قال أى خليل قال من موته فتح للاسلام وأهله قال من قال رفاعة بن زيد قال وا ويلاه من أخبرك يا أبا الوليد بموته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنه مات هذه الساعة فحزن حزناً شديداً .

وهذا يدل على أن رفاعة بن زيد كان على صلة وثيقة مع زعيم النفاق وأنه كان يدبر معه المكائد ويتردى تارة فى الكفر الصريح وأخرى فى النفاق حتى قيل انه وسويد بن الحارث أظهرا الاسلام ونافقا وأن رجالا من المسلمين كانوا يوادونهما فأنزل الله فيهما :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل وأذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون »

المائده من ٥٧ الى ٦١

أما المنافقون من الأعراب فلم يرد من أسمائهم إلا القليل مثاله :

«٤٥» الأخنس بن شريق واسمه أبى قيل إنه خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من حلفائه من بنى زهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء بعد ذلك اليه فأظهر الاسلام وقال الله يعلم أنى صادق ثم هرب بعد ذلك فمر بزرع لقوم من المسلمين وبحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر - وقيـــل إنه الذى نزلت فيه (ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم) و (ويل لكل همزة لمزة) وقيل إنه لم يثبت قط إسلامه.

«٤٦» أبو الجواظ وسبق ذكره فى أحوال المنافقين فى القضاء.

* * *

وإلى هنا وقف بنا المطاف حول مكامن النفاق فى دورة هذه الحقبة التاريخية اللامعة . فأن يكن لنا من الأمر فائدة وموعظة فحسبنا أن نكون قد صاحبنا الحق مع الرسول الأعظم

وشهدنا من خلال الحادثات عنف الصراع مع باطل النفاق كيف يلتفت ويلتوى ويظهر ويختفى ويدفع الى ظلمات الرجس ومهاوى الفتن ثم هو يتضاءل ويفنى ولا يغير من الحق شيئا.

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة. ولعلنا إذا حزبنا الأمر وأطافت بنا طوائف الباطل وأفانين النفاق لا تأخذنا غاشية من بهرجه وزخرفه ورجعنا الى الله الحق العلى مستعينين، واهتدينا بهدى رسوله الكريم، فأكرمنا بالانقاذ من الفتن والضلالات وجعلنا من الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ملحق

الايات القرآنية التى وردت فى شأن المنافقين

السورة	أول الآية	رقم الآية
البقرة	ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين	من ٨ الى ٢٠
«	سيقول السفهاء	١٤٢ و ١٤٣
«	ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا	٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦
آل عمران	وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره	٧٢
«	يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة	من ١١٨ الى ١٢٠

السورة	أول الآية	رقم الآية
آل عمران	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين	١٤٢
«	وطائفة قد أهمتهم أنفسهم	من ١٥٤ الى ١٦٨
«	ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه	١٧٩
النساء	الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل	٣٧ و ٣٨
«	ألم تر إلى الذين يزعمون	من ٦٠-١١٠
«	يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط	من ١٣٥ الى ١٤٦
المائدة	يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر	٤١
«	يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء	من ٥١ الى ٥٦

السورة	أول الآية	رقم الآية
المائدة	وإذا جاءوكم قالوا آمنا	٦١
الانفال	إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم	٤٩
براءة	يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض	من ٣٨ الى آخر السورة
الحج	ومن الناس من يعبد الله على حرف	١١و١٢و١٣
النور	إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم	من ١١ إلى ٢٦
»	ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء	٣٣
»	ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا	من ٤٧ إلى ٥٣
»	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانو معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه	من ٦٢ إلى ٦٤

السورة	أول الآية	رقم الآية
العنكبوت	ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله	١٠ و ١١
الاحزاب	يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين	من ١ إلى ٢٠
»	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة	من ٣٦ إلى ٤٨
»	لئن لم ينته المنافقون	٦٠ و ٦١
»	إنا عرضنا الامانة	٧٢ و ٧٣
القتال	ومنهم من يستمع إليك	من ١٦ إلى آخر السورة
الفتح	ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء	٦

السورة	أول الاية	رقم الاية
الفتح	سيقول لك المخلفون من الاعراب	من١١إلى١٦
الحديد	يوم يقول المنافقون والمنافقات	من١٣إلى١٥
المجادلة	ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى	٨
«	ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم	من١٤إلى٢٢
الحشر	ألم تر إلى الذين نافقوا	من١١إلى١٧
المنافقون	إذا جاءك المنافقون	من ١ إلى ٨
التحريم	يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين	٩

تصحيح الخطأ

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٢	٥	حكمة	كلمة
٥	١٤	عقيدة	عتيدة
٦	٥	لايشك	لاشك
٦	١٤	يأتى	يأتى
٨	١٥	تسيل	يسيل
٩	٨	الدى	الذى
١١	٢	اضطرت	اضطررت
١٢	٨	البسيط	البسيطة
١٨	١٦	الشرقى	الغربى
١٩	٤	يرجع	يرجع
٢٣	٦	وودا لحظوة	وود الحظوة
٢٨	٣	بين عمرو	بين بنى عمرو
٢٨	٥	فاستكشفوا	فاستكشف
٣٠	١	القبله	القبلية
٣٥	٤	الحزرج	الخزرج

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٣٩	١٧	ابن	بن
٤١	٢	بحسبون	يحسبون
٤٨	١١	الجين	الجيش
٤٨	١٥	ابن	بن
٤٩	١٤	بن	ابن
٥٣	١١	يأى	يأتى
٥٦	١	وعضب	وغضب
٦٢	٢	أن أنه	أنه
٧٥	٩	آل عمران	آل عمران ١٤٤
٧٥	١٢	أكنر	أكثر
٧٥	١٦	وما	ما
٧٦	٢	لو كافى	لو كان
٧٦	٩	آل عمران	آل عمران ١٥٦ - ١٥٨
٧٧	٩	آل عمران	آل عمران ١٥٩ - ١٦٠
٩١	١٥	فبر قت	فبرقت

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٩٣	٤	نقص	نقص	١٢٨	١٢	وبخرج	وتخرج
٩٤	٥	وإن	إن	١٢٩	٣ هامش	والمشكله	والمشكلة
٩٤	٦	دارنا	ديارنا	١٣٢	٦	الثاقل	التثاقل
٩٤	١٠	بوتنا	بيوتنا	١٣٢	١٠	غركم	غيركم
١٠٤	٣	وسارو	وساروا	١٣٥	٣	ىم	ثم
١٠٤	١٢	إرفق	ارفق	١٣٦	١	فافعدوا	فاقعدوا
١٠٧	٦	وادا	واذا	١٤٠	٧	فسيكون	فيكون
١١٣	٣	رسولى	رسول	١٤٢	١٥	رسو الله	رسول الله
١١٤	٧	تثبت	أتثبت	١٤٤	٣و١٠ هامش	يبغوبكم	يبغونكم
١١٤	٨	فقهت	نقهت	١٥١	٤	ونجعلون	وتجعلون
١١٦	٩	مبرثى	مبرئى	١٥٤	٩	يقولون	يقول
١١٧	١	من الجان	مثل الجان	١٥٦	١٢	واكتمامهم	واكتتامهم
١١٩	٢	يتغلب	ينقلب	١٥٧	٩	باالله	بالله
١٢٢	١٣	تفرمنة	تفرمنه	١٥٧	١١	قوا	نقموا
١٢٧	١٤	المسامى	المساحى	١٥٩		الية	اليه

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٦٧	١٣	يقربنك	لايقربنك	٢٢٣	٥	الخبيت	الخبيث
١٦٨	١٢	أرفى	أوفى	٢٢٣	٨	ويفتح	ويفتضح
١٧٣	٦	مسجط	مسجد	٢٣٠	٤	رلا	ولا
١٨٧			يزاد فى أول الصفحه كلمة الباب الثانى	٢٣٥	١	مسك	أمسك
				٢٣٥	٦	اذا	إذ
١٩٤	١	ألقول	ألفوا	٢٣٥	١٥	يستند	تستند
١٩٤	٣	نحسبهم	تحسبهم	٢٤٠	٧ هامش	القرد	الفرد
١٩٧	٥	الذئب	الذئب	٢٤١	٩	زراوشت	ز ادشت
٢٠٠	٨	واصح	واضح	٢٤٦	٨	لايغار	لأيغار
٢٠٧	١٤	القلوت	القلوب	٢٥٥	٦	سعد	سعيد
٢٠٨	١ هامش	ورديت	ورويت	٢٥٨	١٤	وأدفه	وأدقه
٢١١	٨	احدات	احداث	٢٥٩	١٣	بقول	يقول
٢١٤	١٢	أنعالى	تعالى	٢٧٦	٩	ورسوله	وبرسوله
٢١٦	٦	نبت	ثبت	٢٨٥	٨	يصلهم	يضلهم
٢١٨	١	نكتب	يكتب	٢٨٦	٤	فضلت	قضيت

رقم الصحيفة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٢٨٧	هامش	أضموا	أضفوا
٢٩١	١	بضرونك	يضرونك
٢٩١	١٣	زبد	زيد
٢٩٢	٨	غبيت	غيبت
٢٩٤	١٠	باختلاف	باختلاق
٣٠١	١	على الله الكذب	على الكذب
٣٠١	٥	قيها	فيها
٣٠٥	رقم الصحيفة	٢٠٥	٣٠٥
٣٠٥	١٤	لم يعدوا	ولذلك لم يعدوا
٣٠٦	٩	بكتب	يكتب
٣١١	٤	رحيما	رحيما
٣١٦	٨	لصاحى	لصاحبي
٣٢٢	٧	برجعوا	يرجعوا
٣٣٦	١١	ابتليت	أبليت
٣٣٦	٨	بيتا	بينا